# قراءة في حياة الربّ يسوع

## الجزء الأوّل

الراهب سارافيم البرموسي

نسخة إلكترونيّة

نحن المرضَى نحتاج إلى الشافـي والمُخلِّص،
نحن الضّالين نحتاج إلى المُرشِد
نحن العميان نحتاج إلى مَنْ يُضيء عيوننا
نحن العطاش نحتاج إلى ينبوع الماء الحيّ
نحن الأموات نحتاج إلى مَنْ هو الحياة
فالبشريّة كلّها تحتاج ليسوع ...

كليمندس السكندري

إنّ كلمات المسيح هي لؤلؤة تلك السلسلة؛ "قراءة في حياة الرب يسوع"، والتي تبحث عن جمالٍ، قد يكون مختبئًا عن أعين البعض، في كلمات المُخلِّص. كلماته روحٍ وحياة .. دفقات من الدماء في عروق الإنسان الجديد .. ودفقات من النور في ضمائر ونفوس وأرواح مَنْ تركوا العتيق البالي بحثـًا عن التجدُّد في المعرفة والخبرة الروحيّة، كلّ يومٍ، على صورة الله الظاهر في الجسد؛ الربّ يسوع.

كلماتٌ تُشكِّل مقياس الحياة الجديدة وتُعيد بعث ذكرَى البراءة الأولى لإنسان ما قبل السقوط.

كلماتٌ تميت وتحيي .. تجرح وتعصب .. تُقيِّد لتُحرِّر .. كلماته نيران تشتعل في القلوب لتدفعهم للسير وإن كانت المسيرة على جمر نار الاضطهاد والضيقة.

إنّ الكلمات هي نطق الحياة؛ فكلمات المخلِّص هي منطوق حياته التي لم تقترب منها شهوة ولا خطيئة ولم تعبث بها غرائز الإنسان العتيق. إلى تلك الحالة كانت دعوة الربّ.

لم يُلْقِها عبثـًا على أُناسٍ يحيون في العالم، والعالم شبكة عنكبوتيّة كبيرة متداخلة .. متاهة من الطرق المتشابكة، لا نهاية لها.

كلماته تحمل من الأسرار الكثير والكثير .. حجابٌ يرق أو يتكثـّف بحسب العلاقة معه .. يرق حجاب الأسرار فيظهر الله للبصيرة في فيض نور الحضرة الإلهيّة .. نورٌ؛ نغماته فرح وسلام في الروح .. وحينما يُستعْلَن الله تتحوَّل مبهمات الكلمات إلى حقائق أبديّة مُحقَّقة لا يلمسها إلاّ الإنسان الجديد القائم في المسيح، من موت الخطيئة.

كلماتٌ كان يلقيها على جموعٍ على مختلف مشاربهم؛ مختلفو الأعمار والمدارك، ولكن كلمات الربّ أشبه بقطعة من الصلصال يُشكِّلها الروح لتناسب الأذهان على مختلف قدراتها .. كلماته كانت قوى الحريّة الجديدة لمن تكبّلت أذهانهم بقناعات حجريّة مغلولة في أصفادٍ حديديّة صدئة هي منطق العالم والحواس والحَرف ..

كلمات الربّ يسوع تنزع النقاب عن وجوهنا المُلثـّمة لنرى الحقيقة، نرى ما يختبئ خلفه من ملامح إنساننا الداخلي. إنها افتضاح رقيق لزيفنا وازدواجيّتنا حتّى نبدأ في إماتة إنساننا العتيق بنصل الكلمة نفسها. لا تفتضحنا كلماته أمام الجموع ولكن فقط أمام نفوسنا ..

كلماته تعيدنا إلى براءة الطفولة الممتزجة بحكمة الروح، تُجدِّد فينا تلك المسحة البريئة من الطُهر والتي يتلفها العالم كلّ يوم بخبرات الجموح التي يلقيها أمام ناظرينا لتجرح براءتنا. وبراءتنا شهيدة بأيدي العالم الذي يضيف إلى جراحها جراحًا، وعلينا أن نذهب لطبيب الحياة ليداوي جراح البراءة المفقودة بكلمات الطُهر والنقاوة.

كلمات المُخلِّص أشبه بلقطات تصويريّة نقف أمامها في انبهارٍ وقد تردّت فنون كلماتنا في عصرنا الحاضر .. ما بين كلماته وكلماتنا هوّة كما بين الأبديّة والهاوية .. هوّة لا تُعبَر .. كلماته إعلانٌ عمّا يراه كإله كائنٍ في حضن الآب، وكلماتنا خواطر لمّا نستشفّه من حضور الله في واقعنا وزماننا .. كلماته توصيف لأفعاله وكينونته الإلهيّة، وكلماتنا توصيف لحيرتنا وتخبُّطنا الإنساني .. أمام كلماته سنخلع نِعال العالم المادّي ونقترب من لهب الحضور المُشتعل في عليقة الزمان، لنركع ونتعبَّد ونقبل حقائق الدهر الآتي.

في كلماته، يرتسم العالم كطفلٍ يتيم منبوذ محروم جائع وتائه، لباسه مأخوذ من حمأة الفقر والفاقة، ولكنه يقف أمام ضياء وهّاج يحمل له ثوبًا مغزولاً بخيوط النور ويشير عليه بمياه بلّوريّة، مَنْ يغتسل فيها يتجدَّد من صبغة التراب المُلتصقة به وكأنــّها جزءٌ منه. الطفل هو العالم الذي ينظر للحياة نظرة قلقة ساجية مضطربة، ولكنّه على موعد مع هبة الحياة؛ تجسُّد وفداء وخلاص الله، الذي ينتشل البشريّة من أوحال الظلمة إلى سُحُب النور الأبدي؛ إنْ قبلت واغتسلت وعاشت بمقتضَى البنوّة الموهوبة لمَنْ يرتدي ثوب المعموديّة الجديد الناصع، الذي هو ثوب الإنسان الجديد بل والمتجدِّد يومًا بعد يومٍ إلى صورة خالقه.

كلماتٌ تسترجعها الذاكرة، والذاكرة متقلّبة انتقائيّة .. بينما كلمات عهدنا الجديد مع الله مكانها القلب، يسترجعها لنا الروح ويلقي بها أمام الإرادة لتدخل معمل الصراع وتُنْتِج سلوكًا يشهد للحمل المذبوح والقائم.

لم تَعُدْ هناك منحوتات حجريّة بأيدي بشرٍ، يكتب الله عليها كلمات جديدة، بل منحوتات قلبيّة يُهذّبها الروح لاستقبال كلمة الله، هناك تابوت العهد الجديد، حيث الكلمة ساكنًا يقيم عشاءه الأبدي ..

هناك مَنْ ينظر للماضي وكأنـّه قممٌ من جليدٍ متجمِّدٍ لم تعبر عليه شمس التجربة الإنسانيّة .. وكأنـّه خيوطٌ أسطوريّةٌ في رداء التاريخ الوهمي الذي نسجته قريحة الشعوب القديمة. وفي المقابل، هناك مَنْ يرَى في الماضي رمادًا ذُرَّ في فضاء التاريخ .. رمادًا لا قيمة له في الحاضر، فاليوم هو الحياة، وكلّ وافدٍ من الأمس، هو ابن قبور الماضي التي لا يجب أن تُفْتَح من جديد.

ولعلّ مسيحنا الذي نرَى فيه الله حيًّا مُتحرِّكًا متلامسًا معنا، قد طاله، من قِبَل العالم، ما طال التاريخ من الإسقاط الأسطوري، أو من التهميش التاريخي، وكلاهما كانا بمثابة محاولة مغرضة لعزلنا عن مسيحنا، ومن ثمّ مسيحيّتنا، لإغراقنا في مياه الحيرة أمام دعوتنا الإلهيّة.

يحاول العالم الآن أن ينال من المسيح من خلال البحث في التاريخ الممتد عبر إحدى وعشرين قرنًا. لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام بهاء الربّ يسوع وشريعته، فبحثوا عمّن دُعوا على اسمه لعلّهم يجدوا في تاريخهم ما يلقون بأضواء ظلمتهم عليه!! ولكن هل كلّ مَنْ يُدعَى مسيحيًّا يحيا حسبما أوصَى الربّ يسوع، وحسبما يُرشِد الروح؟ بالطبع لا. لذا فإنّ مَنْ يريد أن يواجه المسيحيّة يتوجّب عليه مواجهة المُخلِّص، لا مَنْ تسمّوا باسمه، فهناك مسيحيّون اسمًا بينما قلوبهم لم تتشكَّل على تعاليمه بعد. فاسم الله يُجدَّف عليه بين الأمم بسبب أفعال البعض، تلك كانت كلمات القديس بولس في رسالته إلى الرومان.

"كيف أصبح مسيحيًّا؟" كان هو السؤال الذي ردَّده الفيلسوف الدنماركي كيركجارد في كتابه "وجهة نظر" الذي أصدره عام ١٨٤٩، بل وذهب إلى أن نتاجه الفكري كلّه ليس إلاّ محاولة لفهم كيف يصبح مسيحيًّا.

ولعلّ هذا السؤال يراود الكثيرين الآن وخاصة في زمن اختلاط القيم والمبادئ والثقافات .. زمن عولمة الذهن والقلب .. إذ تمّ الخلط عند البعض بين المسيحيّة من حيث هي عَلاقة شخصيّة / ليتورجيّة مع الله، وبين المسيحيّة من حيث هي ديانة بعض الشعوب وميراثهم الفكري والثقافي والحضاري. ذلك الخلط بين المسيحيّة / العَلاقة وبين المسيحيّة / الأيديولوجيّة جعل من الواقع لونًا رماديًّا لا نلمح فيه الخطوط البيضاء أو السوداء بسهولة، وبالوعي المُجرَّد.

ولعلّ المسيحيّة / الأيديولوجيّة كانت السبب المباشر في العزوف عن الدين الذي مازالت تعاني منه المجتمعات الأوروبيّة حتّى الآن، حتّى إن البعض يرى أن أوروبا الآن تعيش في مرحلة "ما بعد المسيحيّة" أو مرحلة "عولمة الدين".

كانت محاولة الفصل ما بين المسيحيّة والمجتمع هي ما دعت إليه أستاذة الفلسفة مارجريت نايت في محاضراتها الشهيرة التي قدّمتها بالإذاعة البريطانيّة في خمسينيّات القرن الماضي والتي حملت عنوان: "أخلاق بغير دين". وقد دعت فيها إلى إمكانيّة قيام أخلاق وضعيّة تحكم السلوك وتوجِّه سير الحياة دون الحاجة إلى الاسترشاد بالمبادِئ والقواعد الدينيّة أو الخضوع لتعاليم الكنيسة!! من هنا ظهر الشعار الذي رفعه دعاة مذهب الحداثة القائل: "إذا أردت أن تكون معاصرًا للحداثة فعليك أن تقول وداعًا للدين".

وقد نشأ في الكنيسة الكاثوليكيّة، كرد فعل، ما يُسمّى بـ"يمين الحداثة" وهو قَسَمٌ يؤدّيه الإكليروس على مختلف فئاتهم، فضلاً عن أساتذة اللاّهوت، وفيه يدينون كلّ ما يتعلّق بالحداثة، وقد كان هذا القَسَمُ معمولاً به حتّى المجمع الفاتيكاني الثاني.

مذهب "الحداثة" قائمٌ على الإيمان بكلّ ما هو قابل للاختبار والمُشاهدة .. قائمٌ على العِلم الذي تفجّرت ينابيعه بالثورة الصناعيّة. والحداثة ترى أنّ الكون محدود لذا من الممكن معرفته؛ فالنظريات العلميّة وحدها هي مصدر الحقيقة، لا وجود لما لا يخضع للنظريّات العلميّة .. لذا لا وجود لعالمٍ آخر!!

وقد انسحب هذا الفكر على المجال المسيحي والذي كان الألماني شليرماخر Schleiermacher (١٧٦٨ ـ ١٨٣٤) رائدًا فيه. فقد رأى أن فكرة الخلق من العدم، والأعمال المعجزيّة الواردة في الكتاب المُقدَّس فضلاً عن الميلاد البتولي للعذراء، هي أمور غير مقبولة علميًّا ومن ثمّ يجب أن تُرفَض!! ودعا إلى إعادة هيكلة الوعي والفهم الديني استنادًا إلى العلم!!

ظهر بعده الألماني ألبرخت رتشيل Albrecht Ritschl (١٨٢٢ ـ ١٨٨٩) والذي نادَى بالحفاظ على البذرة المسيحيّة والتخلُّص من القشرة. والقشرة، في رأيه، كانت أنّ المسيح إله!!!

وفي القرن العشرين هاجم الأمريكي هاري إمرسون فوسديك Harry Emerson Fosdick، الميلاد البتولي، في كلمته التي بعنوان "خطر التعبُّد ليسوع"، وقدَّم وثيقة وقَّع عليها ألف ومائتي راعٍ معمداني، مفادها أنّ الميلاد البتولي والمسحة والقيامة ليست من ضروريات المسيحيّة!!

لقد ظهرت الحداثة كردّة فعل عنيفة على كلّ الثوابت التي طالبت بها الكنيسة الغربيّة، المجتمع، عبر عِدّة قرون ممّا حال دون التقدُّم والبحث. ولعلّ الشعور بأنّ الإيمان المسيحي ضِدّ العلم كان نتاج بعض الحوادث التاريخيّة التي جرت في أوروبا في العصور الوسطَى نتيجة ارتباط السلطة الدينيّة بالسلطة المدنيّة.

ظهر تيار جديد بعد "الحداثة" هو "ما بعد الحداثة" وهو التيار الذي يرفض كلّ تحديد؛ فالحقيقة ليست كونيّة وليست مطلقة وليست قابلة للفهم، كما أنّ اللُّغة لا تُعبِّر عن الحقيقة لأنـّها جزئيّة .. ولأوَّل وهلة تبدو تلك الأفكار مقبولة عن التحديدات التي فرضتها الحداثة من خلال رفضها الإيمان بكلّ خيط لا يعبر على التجربة والمشاهدة، إلاّ أنّ "ما بعد الحداثة" أنتجت ما يمكن أن نطلق عليه "ميوعة فكريّة"، وهو الذي تبنّته بعض الكنائس اللّيبراليّة في الغرب، متنصّلة من كلّ تحديد عقائدي أو حتّى أخلاقي!!

هنا ونجد أنـّها كانت بمثابة محاولة لرأب الصدع بين الأفكار والعقائد والمذاهب المتباينة ولكن من خلال تجريد الإنسان من أيّة قناعة ذهنيّة وفكريّة وروحيّة، وهنا الخلط بين ضرورة أن يكون للإنسان عقيدة، وبين الصراع مع مَنْ يخالفون العقيدة ..

لقد أجرت مجلّة التايمز حوارًا مع أحد هؤلاء الذين آمنوا بـ "ما بعد الحداثة" ويُدعَى برايان ماكليرين والذي طبّق مفاهيم ما بعد الحداثة على الإيمان والحياة المسيحيّة، وحينما كان السؤال عن موقفه من المثليّة الجنسيّة كان ردّه "أنا لا أستطيع أن أجيب لأنّ أيّة إجابة ستجرح فردًا ما"!! وفي موضعٍ آخر أجاب: "يمكننا أن نكتشف الأمر بصورة أوضح بعد خمس سنوات"!!

إيمان ما بعد الحداثة هو إيمان لا يُفرّق بين الصواب والخطأ، بل ويرفض كلّ تحديد وتصنيف أخلاقي للصواب والخطأ تاركًا إياه للمجتمع المدني. وهو بمثابة تنصُّل من المسؤوليّة المسيحيّة والشجاعة المسيحيّة في الإعلان عمّا نؤمن به وإن لم يلق استحسان البعض. ولعلّ خطورة الأخلاق المجتمعيّة تكمن في أن المجتمع يُجدِّد قيمه بين الآن والآخر تبعًا لقانون الإنتاج والاستهلاك المُتحكِّم في أيديولوجيّات الشعوب الآن والخاضعة لرغبة الحكومات في تجنيد الأخلاق لصالح الإنتاجيّة؛ فمثلاً الزنا ليس إشكاليّة ولكن الكذب إشكاليّة في تلك المجتمعات، لأنّ الكذب يُهدِّد منظومة الإنتاج. لذا لن تكون هناك ثوابت أخلاقيّة وهو ما يُنبِئ بسقوط وانهيار تلك المجتمعات عينها.

تلك بعضٌ من الأفكار التي تتحكّم في العقليّة المعاصرة، وهي تتأرجح أو قل تترنـّح ما بين الأخلاق اللاّدينيّة، والحداثة الآمنة في أحضان النظريات العلميّة، والميوعة الفكرية والعقائديّة الناتجة عمّا بعد الحداثة، وهو ما دفع ألبير كامو ليقول: "إنّ العقل الحديث يعاني من تشوُّش، لقد امتدّت المعارف إلى مدى أصبح فيه من الصعب على العالم أو الذهن أن يجد موطئًا لقدم، إنها لحقيقة أننا نعاني من العدميّة!!"

كان مُحصِّلة هذا التشوُّش أنْ ابتعدت العقليّة المعاصرة عن الله لأنـّه غير خاضع للقياس العلمي .. كما توجّست من إقامة عَلاقة معه لئلا تقع أسيرةً لقيود أخلاقيّة تستلزمها تلك العَلاقة .. لذا فإنّ العقليّة المعاصرة يبدو وكأنـّها تائهة في آفاقٍ بلا عودة ..

المشكلة المعاصرة تكمن في الخلط بين الحياة داخليًّا والحياة خارجيًّا .. الخلط بين الإيمان بالأبديّة والعمل في دائرة الزمن .. بين الروح والجسد .. إنها من جديد مشكلة الخلط بين المسيحيّة / العَلاقة والمسيحيّة / الأيديولوجيّة ..

ومن اللاّفت للنظر أنّ المسيح لم يستخدم كلمة "ديانة" مُطلقًا في الأناجيل الأربعة. في المقابل كان مطلبه هو الإيمان به حتى يستطيع البشر أن يخطو أولى خطوات نوال الخلاص؛ « مَنْ يؤمن بي ولو مات فسيحيا ».

هنا ويتساءل البعض: هل جاء المسيح ليؤسِّس دينًا وضعيًّا يُعنَى بالنُظُم الأرضيّة تفصيلاً، وهل جاء المسيح ليضع بعض القواعد الأخلاقيّة التي تحكم العَلاقات؟ هل جاء ليوصِد أبواب المعرفة والانطلاق العلمي لصالح الأبديّة؟ هل كان الإيمان يتعارض مع الثورة العلميّة المعاصرة؟؟

وقال له واحدٌ من الجمع:<br>
يا مُعلِّمُ، قل لأخي أن يقاسمني الميراث<br>
فقال له: يا إنسان، مَنْ أقامني عليكما قاضيًا أو مُقسِّمًا؟<br>
وقال لهم: انظروا وتحفَّظوا من الطَّمع<br>
فإنَّه متى كان لأحدٍ كثيرٌ فليست حياته من أمواله

لو ١٢: ١٣ ـ ١٥

الغذاء لإعادة البعث الباطني (المتولِّد من فطرة الإنسان الجديد) لتلك الأخلاق الظاهريّة (الاجتماعيّة)، تلك التي لا تنبت من أرضٍ ارتوت بالفداء الإلهي.

لذا فإنّ الكتاب المُقدَّس غير معني بحركة العلم صعودًا وهبوطًا .. لا يدينها ولا يُكبِّلها .. فالكلمة الإلهيّة معنيّة فقط بروح الإنسان ونقاوتها.

## الرب يسوع في أعين العالم

من هنا ضرورة العودة إلى نقاء الإيمان المسيحي الذي يتشكَّل من عَلاقتنا الكيانيّة بالله .. تلك العَلاقة التي تتوطّد بقدر وعي الكلمة والحياة بها مُفسَّرة بالروح في قلوبنا. لذا يجب أنْ نتدرّب على قراءة الكتاب المُقدّس بوعي مُعاصر، فالمعاصرة لا تعني للمسيحي التخلُّص من روابط الإيمان تلك التي تجعل للحياة قيمة حقيقيّة. وحينما تصبح للحياة قيمة، ترتسم ملامح الربّ يسوع في ملامحنا التي نطالع بها العالم الخارجي، كسفراء عن المسيح، وكأننا عظة المسيح للعالم .. منبره .. بوقه الذي يُرسِل من خلاله كلمته إلى أقاصي الأرض ..

ولما دخل أورشليم ارتجّت المدينة كلّها قائلة: مَنْ هذا؟

مت ٢١: ١٠

لذا فإننا في حاجة شديدة لنُعيد قراءة إنجيلنا، لنتحسَّس فيه مُعاملات المسيح مع الجموع، تلك التي يتحدّث عنها البعض، على استحياءٍ، ولكنّها لم تُفعَّل في الواقع سوى في مشاهد متقطّعة من حياة هذا أو ذاك؛ فلُطف المسيح لم يجد له مكانًا وسط ازدحام التعاليم التي ملأت رؤوسنا، فلم تُبقِ مكانًا لحياة يسوع، ومن ثمّ للحياة بيسوع.

إنّ إعادة قراءتنا للإنجيل تهدف إلى إعادة صياغة لقيمنا الأخلاقيّة والاجتماعيّة التي نتفاعل بها مع الآخرين، كمسيحيين حقيقيين .. مولودين من الماء والروح.

تأتي أهميّة هذا الطرح من الفجوة التي أصبحت تلمس مسيحنا، ما بين النظريّة والواقع، ما بين الخيال المتأرجح في الماضي، وما بين الواقع المُعاش والضرورة الخدميّة والرعائيّة. فالمسيح الذي نُطالعه في كتابنا المُقدَّس ليس نسجًا من الخيال اليوتوبي الذي يستقطب أشواقًا مجرَّدة لا تمس أرض حاضرنا.

ففكرة اليوتوبيا ( المدينة الفاضلة / المثاليّة ) الأفلاطونيّة كانت نظريّة لم يستطِع حتى أفلاطون مؤلِّفها أن يُطبِّقها على أرض الواقع، بل إنّ تجربة الفيثاغوريين في معهدهم العلمي أو قل ديرهم العلمي والفلسفي، والسابقة لأفلاطون، كانت تجربة محدودة لقطاع محدود، لزمنٍ محدود للغاية، لم تطل ولم تلتحم مع سَيْر التاريخ بعد ذلك.

واليوتوبيا بحسب المعنَى الاشتقاقي للكلمة اليونانيّة تعني "المكان غير الموجود" وقد ظهرت أوّل ما ظهرت كعنوان لكتاب توماس مور في القرن السادس عشر، انطلاقًا من الفكرة الأفلاطونيّة التي نادَى بها أفلاطون في كتابه الجمهوريّة في القرن الرابع قبل الميلاد.

"مَنْ يُنكِر المسيّا، يُنكِر التوراة"؛ كلمات قالها الرّابي اليهودي الشهير موسَى بن ميمون؛ ولكن، أيُّ مسيًّا كان ينتظر اليهود؟

لقد رفض اليهود القبول بمسيانيّة الربّ يسوع لأنّهم كانوا باحثين عن خيال يوتوبي، لم يقبلوا بمسيح يُغيِّر من الإنسان الداخلي .. كانوا يتوقّعون تغييرًا خارجيًّا في الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة .. لم يَرُقْهُمْ المُخلِّص لأنـّه أشار إلى يوتوبيا الأبديّة، بينما كانوا هم يحلمون بكنعان .. الأرض التي تفيض لبنًا وعسلاً!!!

لم يكن الربّ يسوع، يومًا، أسير النظريّة والحُلم، بل هو، أبدًا، الحاضر معنا في واقعنا المُعاصِر، فهو الله معنا على الدوام. إنه يجعل للفضيلة مدينة في قلوبنا، ويجعل من القلوب الفاضلة كنيسة، ومن الكنيسة جمعًا يتخطّى الزمان.

من يُطالِع النصوص الكتابيّة التي ترصد معاملات المسيح يرَى بالحق كم كان ملامسًا للواقع دون أن يلتف بعباءته، وكم كان واعيًا بالحاجة الإنسانيّة بل وكم كان حنونًا على الشعور الإنساني، فالفضيلة المسيحيّة كما أعلنها المسيح قائمة على البذل.

بين الليبراليّة والتقليد كانت تتأرجح كلماته، لتُصيب جمود التقليد اليهودي بسهم الحياة ليستفيق، ولتُصيب التحرُّر الذي لا يرتكن على أساسٍ لكيما ينضبط. تقليد المسيح لا يعني جمودًا، وتحرُّر المسيح لا يعني انفلاتًا. هناك شعرة فاصلة بينهما لا يُدرِكها إلاّ مَنْ استمع لنداء الروح.

معاملات المسيح دستورٌ منفتحٌ وليس منغلقًا، ليست قوالبَ جامدةً لنُحاكيها في تفاصيلها، ولكن لنرتشف من رحيقها ونذهب بها إلى واقعنا ونصبّها في وعاء حاضرنا بما له وما عليه. ليست

قانونًا يدين ويحكم علينا من منظور القرون الغابرة ولكنه شطًّا يحصر مياهنا من التبعثـر في شطآن العالم الذي تتعدَّد روافده وتصبُّ في بحارٍ شاسعة.

لم يطلُب منّا يومًا أنْ نرتدي ما كان يرتديه، أو أنْ نرتاد من الأماكن ما كان يرتاده، أو أنْ نحاكي ثقافةً كانت سائدةً في عصره. كان مطلبه القلب، وأن يستجيب القلب لنداء محبّته الذي ناجَى به البشر من على جلجثة الألم.

ومن القبر أطلق الكلمة، كلمته، للعالم، بأن عصر الظلمة قد انتهى بفجرٍ جديد ونورٍ مشرق لم يَخْبُ منذ ذاك اليوم.

كلمته الإلهيّة تعمل على تنمية حِسّنا وحواسنا لنتعلَّم كيفيّة مواجهة الحياة في زيِّها المُعاصر.

لم يرفُض المسيح الاستدلال بالتاريخ؛ فحينما فَرَكَ تلاميذه سنابل القمح ليأكلوا في يوم السبت، كان سنده هو ما فعله داود ومَنْ معه حينما أكلوا من خبز التقدمة وهو ما لم يحل أكله سوى للكهنة (انظر: مت ١٢: ١ ـ ٨). في المقابل، لم يكن المسيح ليطالبنا بجمود الحَرف، إذ قد هاجم بشدَّة سطوة الحَرف القديم على الروح، وسيادة الذبيحة على حساب الرحمة والحقّ والإنسانيّة. والإنسانيّة دومًا واقفة تتلمَّس مَنْ يُعالِج واقعها المعاصر، ولا تقبل مَنْ يُلقي عليها بخُطبٍ من على منابر التاريخ. ولعلّ التاريخ ذاته لا يطالبنا بأن نتوقَّف عند حوادثه لنؤلِّهها، فما بين الاستدلال بالتاريخ والاستقواء بالتاريخ بون شاسع. حوادث التاريخ ليست ثوبًا نحيكه ونفرض على الجميع ارتداءه بدعوى الوحدانيّة، فالوحدانيّة تتطلَّب تعدُّدًا لتُصبح وحدانيّة سويَّة، وهذا درسنا من الثالوث.

## ووقعت دهشة على الجميع

حينما نقرأ في النصوص الكتابيّة عن تلك المواقف التي جابهت المسيح، بل جابها جيئةً وذَهابًا بروح الحبّ، لا نملك إلاّ أن نتوقّف مندهشين من القدرة على مصالحة الإنسان، والعودة بأشلائه المتناثرة إلى الجسد الواحد الثري والفعَّال والحي والنابض.

الحياة كانت مطلب المسيح وعطاؤه، لم يمر عليه أحد إلاّ وقد طاله ظلُّ الحياة، فعاين نفسه وحركته الذاتيّة، فتيقّن من ألوهيّة المسيح. ألم يكن هذا هو لسان حال نثنائيل الذي آمن بسبب كشفٍ صغيرٍ لحياته الخفيّة!! ومَنْ يتيقّن من ألوهيّة يسوع يثق في ألوهيّة الدعوة والعطيّة، والنهاية التي طالما كانت

تحملها كلمات المسيح، فتحمل معها أنفاس السلام لمُعذَّبي ضيقة العالم الحاضر. هناك، لا حزن ولا أوجاع .. لا تأوهات ولا ضيقات .. لا دموع ولا شجون .. لا ذكريات ولا أضغان .. لا مؤامرات ولا أطماع .. لا قيود ولا حدود .. لا مظالم ولا مكالم .. هناك ما لا يمكن وصفه بمحدوديّة الكلمات والعبارات.

إنّ الدهشة من معالم الحياة السويّة والخلاّقة. تلك الدهشة لم تفارق العيون التي طالما تابعت الربّ يسوع. تابعته حراكًا في أراضي أورشليم واليهوديّة والسامرة، كما أنّ الدهشة لم تفارق بصائر مَنْ عاينوا المُخلِّص حراكًا في القلب والذهن والحواس والمشاعر. دهشةٌ تتجدَّد بتجدُّد الحياة، وكلّما تلقي الحياة بألغازها لتصيبنا باليأس والقنوط وتنزع من أرجلنا قوى الرجاء في غدٍ أفضل، يأتي الربّ ليدهشنا بحلولٍ لم تعبر على أذهاننا التي جابت الليالي الطوال بحثـًا عن أجوبةٍ في فضاء التساؤلات.

إنّها الدهشة ذاتها التي نشبت في قلوب مَنْ عاينوا لعازر ينتفض من بين أقمطة الموت .. ومَنْ عاينوا الرياح والعواصف تستلقي في سكونٍ تحت أقدام المُخلِّص مُعلنةً وفاءً وخضوعًا لقدرته .. ومَنْ عاينوا المفلوج ترتعش أقدامه بالحياة، فتعانق الأرض بعد طوال غياب بل وتنهبها نهبًا في سيرٍ وكأنـّه تعويضٌ عن أيام الجفاء بين الأرض والقدم .. ومَنْ عاينوا الأرواح تفرّ منزعجة من حضورٍ إلهيٍّ فائقٍ بل وغير مسبوق يُلقي بضيائه على مستوطنة الظلمة، لتتلاشَى مع غيوم الليل التي يُفتّتها شعاعُ الشمس .. ومَنْ عاينوا مولودًا بلا أعين وقد نبتت له أعين، وكأنّ الخلق قد عاد من جديد لعالم العدم ليصير وجودًا!!

ولكن المعجزات لم تكن منبع الدهشة الأوحد في حياة الربّ يسوع بل إنّ حمم الدهشة كانت تتفجَّر على مرّ العصور بشكلٍ يفوق الوصف أمام لطف المسيح؛ أمام غانية قد باعت جسدها وروحها بحثـًا عن المزيد من المال، الذي لا تعرف له مصدر سوى إغواء الرجال!! وأمام جابٍ لضرائبٍ من قوت الفقراء والمُعدمين!! .. هنا يقف الجميع وكأنّ ألسنتهم قد فارقت أفواههم وطارت إلى أعينهم التي ما فتئت تصرخ من هول الصدمة.

فما من مصلحٍ جاء إلاّ وكان الخطاة هم وقود رسالته التي يلقي بشعلة كلماته عليهم، ليصيروا رمادًا، ومن ذلك الرماد ينقش اسمه على رقوق التاريخ!! ألم يكن هتلر هو المُصلِح الذي أراد أن يُعيد توزيع البشريّة على قياس عرقي؛ فالجرمان هم الأفضل والباقي لهم عبيد!! ولعلّه كان مُشبّعًا بكلمات الفيلسوف الألماني نيتشه، والذي كان بمثابة أحد أنبياء النازيّة، والتي قال فيها: "لا حل إلاّ بالقوّة .. لا إرادة أعظم من إرادة الإنسان القوي .. أنت قوي إذن أنت عظيم، وأنت عظيم إذن أنت حاكم. أنت

حاكم فأنت مطلق!! أنت مطلق إذن تنحني لك كلّ الرؤوس. فهذه الرؤوس لم تُخَلق لكي تنحني إلاّ لمَنْ هو عظيم .. من الظلم أن نساوي بين العاديين وبين الممتازين .. كلّ دعوة إلى المساواة هي دعوة ظالمة تحط من شأن العظماء. لذلك فالديانة المسيحيّة هي التي دعت إلى المساواة وإلى التسامح، هي التي أفسدت الفكر الإنساني بالفلسفة"!!!

كانت دعوة نيتشه هي عودة بالإنسان إلى الحيوانيّة ومنطق الغابة القائم على القوّة.

ولكن إصلاح الخالق ليس كإصلاح المخلوق، فالإنسان في حياة المسيح غاية، بينما في حياة المُصْلحين كثيرًا ما يتحوَّل في نهاية الأمر إلى دعاية. لذا فإن المسيح قد دشَّن عهدًا جديدًا لمذهب الإصلاح الإنساني، قد اعتنقه من تبعه، وإن أنكروه عليه وتنصَّلوا من تأثـُّرهم به وسيرهم على دربه. إصلاح المسيح لم يكن محاولة استقطاب عددٍ أكبر من الجموع، بل كان شوقًا للإنسان الذي طالما تغرَّب في كورة الخنازير، حيث الخرنوب هو المتعة الوحيدة في تلك الكورة. والشوق الإلهي لا يعبأ بالأعين الفاحصة المُحللِّة للمواقف تبعًا لأغراضها وأطماعها؛ فالحبّ يسحب ضياء الكون عن الجميع ليعاين به وجه المحبوب، تلك كانت رسالة الربّ يسوع وحياته.

كانت دعوة المسيح الأصيلة هي نداءٌ إلى الحبِّ في أكمل وأغنَى صوره؛ فقد أذاب الفواصل بين الأجناس والشعوب والعرقيّات والألوان. كانت تلك هي الجريمة التي أتّهمه بها نيتشه!! لقد كان المُخلِّص متّهمًا بالحبّ والدعوة إلى الحبّ ..

كانت الدهشة التي تحملها كلمات الربّ يسوع صادمة في بعض الأحيان لموروثات تقنيّة؛ فالعمق لا يؤتي بسمكٍ لمن يعرفون صيد السمك، ولكن كلمات المسيح تختبر الإيمان، وحينما يصدُق الإيمان فإنّ كلّ شيءٍ يمكن أن يتحقّق. ولكن هل مسعَى المسيح إغناء أتباعه، أم جذبهم لإتّباعه؟!

لقد كانت الدهشة العظمَى لمَنْ تناولوا حياة المُخلِّص هي قدرته على ملاحقة الخطاة بترياق الحبّ وتجديدهم دفعة أخرى ..

## لأجل الخطاة جئت

في نظر الناس، يبدو البعض خطاة، إلاّ أن قلوب هؤلاء الذين نراهم خطاة هي أشبه بأرضٍ جافّة يابسة ترجو مطرًا، ولكن مَنْ ذا الذي يُدْرِك ويرصد أشواق القلوب الخبيئة. هم ينتظرون كلمة ..

يلتمسون مَنْ يتبعون .. لهؤلاء، كان الربّ يسوع هو الكلمة التي طالما راودت أحلامهم؛ كلمةٌ، تُحرِّرهم من عبودية المّادة والبشر، وقد يصير البشر أقسَى على الخطاة من الخطيئة، حينما تمتدُّ أصابع أبصارهم وتصرُخ: نجسٌ نجسٌ!!

إنّ المُخلِّص كلمةٌ أمام بريقه ينحلّ قيد الخطيئة ويذوب، وكأنّه قطعة جليد قد وُضِعَت بين أحضان الشمس المُشرقة.

والمسيح لم يأت ليُرقِّع ثوب البشريّة العتيق .. فما عتق وشاخ قارب على الاضمحلال، وحينما تضمحل الظلمة لابدّ أن يكون هناك جدّة الحياة. فالإنسان الجديد هو وعد المسيح لمن أنـّوا من الإنسان العتيق .. ففي آدم الجديد سيحيا الجميع.

هل كانت نظرات المُخلِّص هي سرُّ التغيُّر الذي يحدث لكلِّ مَنْ وقف أمامه؟ أم هل هي سيرته الناصعة البياض التي لم تُدَانِهَا شوائب وتقربها خطايا البشر؟ أم هل كان ما يُقَال عن قدراته الهائلة على الحوار مع الأجساد والأرواح والطبيعة هو ما هيّأ القلوب للخضوع له؟ قد يكون. إلاّ أن هناك حقيقة واحدة لا تقبل الجدل؛ وهي أنـّه أحبّ الخطاة بالرغم من استيائه وألمه من الخطيئة. ومَنْ يُحبّ، يُخْضِع كونْ مُحبّيه لمُلكِه وصولجانه.

مَنْ يُقلِّب صفحات الأناجيل، ويُقلِّب معها خبراته مع المُخلِّص، يجد خيطًا واضحًا يُمثـّل عمودًا فقريًّا لعمل المسيح؛ إنـّه فتح باب الرجاء لمن حاصرهم العالم وأغلق عليهم في سراديبه الرطبة الضيّقة. كان شُغْل المسيح الشاغل هو أشعّة الرجاء التي يبذرها أينما حلَّ؛ بالكلمة والصمت، بالنظرة والإيماءة، باللّمسة والصلاة .. كانت أشعّته تحلّ أينما كان لتحلّ معها ملائكة النور التي تُطارِد فلول الظلمة لتُنقّي القلوب والعقول لقبول كلمة الخلاص، ومن ثمّ قرار التخلُّص من ماضي الهوى والشهوات. ما من إنسان جاء إلى الربّ يسوع حاملاً أكفان رجائه إلاّ ولمسها ليُعيد إليه الرجاء حيًّا نابضًا. ولكن الرجاء لا يعمل فيمن يقاوم الروح ويتحسَّس بأقدام قناعاته الخطوات التي سيخطو ويحسب ربحها وخسارتها ليُقرِّر وجهته. أمام أولئك صمت الربّ، وفي أحيانٍ أُخرى ألمح إلى الإيمان، بينما في بعض المواقف كان التوبيخ هو مشرطه لاستئصال منطق العالم الذي ينتفخ يومًا بعد يوم وينتشر ليملك كيان الإنسان ويطرحه قعيدًا في انتظار لحظات الموت بقلبٍ مرتعش. كان المسيح يوبِّخ حبًّا وألمًا على مَنْ عاينوه ولم يقبلوه، فقبلهم دار الموت في ظلماته، أبدًا. ومن حُبّ المُخلِّص وتوبيخه يتفجَّر الإيمان، تلك هي معجزة إيماننا ..

إنّ التعامل الإنساني ما بين البشر موصومٌ بالازدواجيّة والانتقائيّة، بينما تعاملات المُخلِّص هي تعاملات الأب مع البنين، وكأنـّه لا يرى في الكون سواك ابنًا، لا يشغله سواك.

لم يَكِلْ الربّ يسوع بمكيالَيْن، ولم يُحِب حُبًّا منقوصًا، لم يعبأ بالوجوه أو الأصول، لم يتودَّد للكهنة وقادة الشعب، لم يتجاهل سيِّئو السمعة ولم يقابلهم خفية، لم يلق بالاً لما يُقال عنه، ولم يتحرَّك وفقًا لمخاوف أو طموحات مَنْ حوله. لم يتحصّن بأعداد الجموع، ولم يتصيَّد لمقاوميه، لم يحشد الجموع للثورة، ولم يدفعهم للاقتتال، لم يخشَ على حياته، ولم يُزيِّف دعواه لضمان تبعيّة تلاميذه. لم يكره ولم ينتقم، لم يشمت ولم يتوعَّد، لم يتشكَّك ولم يتراجع، لم يُسالِم على أنقاض الحقّ، ولم يَدْعُ للحرب، لم يرفض أحدًا ولم يطلب عونًا من أحد، لم يقبل بسبتٍ يتسيّد على الإنسان ولم يَرْضَ بوصيّة تستعبد الإنسان، لم يكن له مسند لرأسه إذ لم يكن له بيتٌ يستلقي على فراشه. لم يخشَ من ملامسة مَنْ قيل عنهم أنجاس، ولم يكن يخفَى عليه لمسات المُعذّبين، فقوّة كانت تخرج منه يجتذبها الإيمان المتحرِّك والحي ولا شيء غيره، لم يُفارِقه ظلّ الصليب، ولم يفارق أرضنا إلاّ فوق صليب.

لذا فإنّ إيماننا بألوهة المسيح لا يتوكّأ على انبهارنا بمعجزاتٍ دوّنها لنا مَنْ عاينوها برؤى العين، ولكنه إيمانٌ قد وجد له أساسًا من حياة المسيح الفريدة التي لا يمكن لبشرٍ أن يحياها بهذا الاتزان المُذهل. والاتزان يتطلَّب وعيًا بالنفوس، ومَنْ يعلم النفوس إلاّ مَنْ أسكنها في أجسادٍ يوم كانت نفخته الإلهيّة في كتلة الطين. فالبشر كثيرًا ما يُخطئون في تعاملاتهم لأنّهم لا يعلمون ما يعتمر في النفوس الأُخرى، فيأتي التصادم والخلاف والاختلاف .. بينما المسيح كان يقرأ النفوس كقراءته لأسفار الأنبياء في المجمع المُقدَّس. يقرأها، لأنه صاحب كلماتها منذ أن كانت حروفًا متناثرة في الطفولة والصبا حتّى أصبحت فقرات وصفحات في الشيب والشيخوخة.

إنّ إيمانًا قائمٌ على المعجزة هو إيمانٌ يترجّى في كلّ حينٍ معجزةً، بينما الإيمان القائم على قناعة العَلاقة مع المسيح، هو إيمان يستمد من المسيح قدوةً، في الأفراح والأتراح. إيمان المعجزات هو إيمان لا يقبل الصليب لأنه في انتظار دائم للحظة رفع الصليب والتخلُّص منه، بينما إيمان الحبّ هو إيمان يعانق الصليب طالما كان إرادة السماء، معانقة لا تنفصل حتّى الجلجثة وإلى منتهَى مشيئة الله. طوبَى لمَنْ آمنوا ولم يروا.

إنّ الإيمان والرؤية ليسا ضِدّان على طول الطريق، ولكن الإيمان هو مرحلة الثقة الكاملة، يتبعها رؤيا ومعاينة بالقلب، تصبح رؤية في الأبديّة بحواس الجسد الجديد، القيامي. فمَنْ يطلب الرؤية قبل أنْ يخوض مغامرة الإيمان، هو لا يكتفي بالكلمة، ولا يثق في الروح، هو طفلٌ يلتمس المكافأة دونما جهد، وهذا ليس قانون الحياة ولا الأبديّة. مَنْ يشتهي أنْ يرى عجائب وقوّات الدهر الآتي، كأنه يُغلِق كتابه المُقدَّس الذي يعاين فيه الله قلبيًّا، أو يجب أن يكون هكذا، ويطلب من الله أن يعيد صياغة عَلاقته بالبشر!! إنّه يطلب بصرًا لا بصيرة؛ فحياة الحواس تُحرِّكه نحو مطالب حسيّة؟! ولكن الله روح، والذي يسجدون له، فبالروح والحقِّ ينبغي أن يسجدوا. مَنْ نالوا الرؤى كانوا في ذروة الألم، بل خاضوا محنة الإيمان إلى ذروتها، ووصلوا إلى المعاينة، وبعدما عاينوا عادوا ليُحدّثونا عن جمال المعاينة، ولكن كلماتهم حملت من الغموض أكثر من الصمت، فالكلمة تصاغرت أمام وصف المعاينة، فصارت لُغزًا بدلاً من أن تُأوَّل فهمًا.

كان ديديموس، المُعلِّم السكندري العظيم، ضريرًا ولكنه كان بصيرًا، لم يرى النور بأعين الجسد، ولكنه استشعر دفئه يملك شغاف قلبه، كانت تلك هي معاينته بل وخبرته. إنـّه الرجل الذي بحث عنه القديس أنطونيوس حينما قصد الإسكندريّة للمرّة الثانية، وحينما لاقاه، قال له:

لا يحزنك فقدان بصرك،
إذ نُزعت منك أعين جسديّة
كالتي يملكها الفئران والذباب،
بل حريٌّ بك أن تبتهج إذ لك أعينًا كالملائكة،
ترى بها الله عينه وتُدْرِك نوره.

ولكن قد تعبر بنا السماء بإطلالاتٍ من نورٍ في لحظات المحنة الجماعيّة لتُضمِّد رضوض إيماننا الذي اصطدم بالعالم، بل اصطدم به العالم. إلاّ إنّ هناك مَنْ يريد أن يجعل من الحياة لُحمة من المعاينات والرؤى، ولكن قانون الأبديّة هو أنّ القيامة يسبقها موت، والمجد يسبقه ألم .. الموت والألم قد يكونان إيماننا المُجرَّد من التعزية؛ إنّها ظلمات قبورٍ ولكنها منيرة، فالفجر منها آتٍ لا محالة. والفجر لا يشرق بعيدًا عن مخدع الصلاة ..

## وصعد إلى الجبل منفردًا ليصلّي

"عندما يأتي المساء يتوقَّف الزمن وتبقَى الأبديّة"، هذه هي كلمات كيركجارد. فالصلاة الليليّة هي الوقوف على مرصد الوجود لمعاينة تلك الأبديّة التي تظهر ليلاً وكأنّها نجمٌ لا يسطع بنوره إلاّ حينما تخبو أنوار الحياة. وللّيل سحرٌ خاص وجاذبيّة فريدة من نوعها، لأنّ البشر يقبلون فيه موتهم الصغير (النوم)، إلاّ مَنْ تمسّكوا بالحياة وثابروا على ملاحقة خيوطها لمعرفة مخبأها السرّي، لهؤلاء يبقَى اللّيل سرّهم مع العالم الجديد، والله في تجلٍّ دائم لمَنْ يصعد جبل تابور برفقة المُخلِّص طوال النهار ..

مَنْ يكتشف سِرَّ اللّيل المُفعَم بالنِعَم والكنوز الإلهيّة يستشعر وكأنّه يسبح في طبقات الأثير ويغوص في لُجج الفضاء .. لا تستوقفه جاذبيّة الأرض ولا جاذبيّة العالم .. لا يبهره ضوء الصباح الصاخب بالحركة والكسب والمجد .. فمَنْ تتآلف روحه مع السكون ويتعانق قلبه مع صمت اللّيل يصير أهلاً لسماع شدو السماء .. شدوٌ يُسرِعُ بنبضات القلب ويشير إلى ولادة الحبّ.

لقد علَّم الربّ يسوع البشريّة أنْ لها عونًا في الصلاة؛ فقد كانت خلوته على الجبل في ليالي الصيف والشتاء هي لحظات معاينته، منعزلاً، لأبيه الذي لم يفارقه لحظةً. مَنْ لا يتعرَّف على المسيح في خلوة الصلاة لن ينال قوَّة المسيح المُغيِّرة للنفس والمجتمع. إنّ الكثيرين يتحدّثون عن المسيح المُصلِح، ويريدون أنْ يرتدوا عباءته، ولكن، هل لهم شهادة من صخور الجبال في اللّيالي على مصداقيّة مسعاهم ونبله. فالمُصلح الذي يرسم خارطةً للتغيير بيديه يطلب مجد نفسه مهما أدّعَى حرصه على الكنيسة أو المجتمع. بينما الذي يطلب أنْ يُعاين في الوجوه، الربّ يسوع، تجد يديه مرتفعة إلى العلاء، تطلب وعيًا واستنارةً وفهمًا وعونًا بل وإرسالاً، فمَنْ لا يُرسَل لا يكرز .. أمّا مَنْ تُصْلَب يداه في الصلاة ترتسم له خارطة العمل بأيدي الله، هنا يظهر الله ويتمجَّد. فالمسيح لم يَدْعُ مَنْ سيُدْعون تلاميذًا فيما بعد، إلاّ بعد ليلةٍ من الصلاة.

الصلاة هي بمثابة الفراش الوثير الذي يستلقي عليه الإنسان ليريح العقل الذي آلمه عدم التوصُّل إلى قانون موحَّد يتعرَّف به إلى الأشياء والأشخاص، بل وينسجم به مع الأشياء والأشخاص، فالتنوُّع والتباين مُتّسع لا يمكن الإحاطة به ولا بلوغ مداه، والمدَى مُلقىً في الأزل والأبد، فمن له باحتضان الأزل والأبد في فكره وقناعاته؟!

حينما نُصلّي نُدخِل معطيات جديدة لعقولنا لم نستَقِهَا من الحواس ولا من الخبرات البشريّة والمجتمعيّة، وهو ما يفتح أمام عقولنا بابًا آخر لوعي الوجود، فلا تتأزَّم عقولنا من الحيرة، فهناك أمل في

الوعي خارج دائرة العقل، وهذا كثيرًا ما يريح العقل. ولكن قد يخرج علينا البعض قائلين إنّ الصلاة صراعٌ وجهاد، فكيف تُصبح فراشًا وثيرًا؟؟ ومعهم كلّ الحق؛ فالصلاة هي الحركة الأصعب لكيان الإنسان خارج ذاته وبعيدًا عن أمان قناعاته الزائف والمُخلِّق، لأنّ هناك مَنْ يترصّد الصلاة ويقاومها بكلّ الطرق.

ولكن الألم قد يعني في الكثير من الأحيان الراحة. فألم الأم راحة لوليدها، وألم المشرط راحة للمريض، وألم المواجهة راحة للضمير .. إلخ. فالألم الناجم عن حركة الصلاة يحمل في طيّاته نغمًا يريح العقل من حيرته، ويستوقفه ليأخذه خارج دائرة المنطق الحسّي لينظر ما لا يصفه منطق، وهناك يقف العقل هانئًا لأنـّه لم يصبح المسؤول الأوّل والأخير عن مصير الإنسان، هناك يتعرَّف على إلهٍ يؤكِّد له أن نعمته شريكة في هذا المصير بقدر عمله وإيمانه. ولعلّ هذه اللّحظات هي من مظاهر التصالُح بين الإنسان وذاته .. بين الإنسان وعقله .. وبين العقل والله.

وحينما يُسلِّم العقل لله، في الصلاة، دفّة القيادة، يبدأ في استقاء التعليم الإلهي الذي يخرج به للعالم. والتعليم هو خبز الجموع الذي قدّمه المسيح قبل طعام الجسد. ولم يكن منبر التعليم سوى الجبل؛ فالدستور المسيحي قد أُلقي على الجموع من فوق جبلٍ، وكأنّ الصلاة والتعليم لا ينطلقان إلاّ من الجبل حيث الرفعة عن الأرض.

## نظر وبارك وكسر

لم يتأفّف الربّ يسوع من الاهتمام بضرورات حياة الإنسان؛ فقد أعدّ للجموع مائدةً ولكن بقدراته الإلهيّة، ليأكلوا ويشبعوا. فالجسد ليس عدوًّا، لكنها الشهوة والانحراف عن الضرورة. مَنْ يتبع خُطَى المُخلِّص لا يُلقي بكلمات الروح على أجسادٍ منهكة ومعدات صارخة؛ فصراخ البطن أعلى من مواعظ الفضيلة. والفضيلة هي التفاعل مع الآخرين بمقياس الأبديّة. فمَنْ ينعزل عن الجموع ويرتفع في سُحُب التأمّلات ولا يشارك الجموع أنينهم، لا تتلقّف الجموع كلماته، بل تتركها مبعثرة على أراضٍ عارية لتلتقطها طيور السماء. فقط مَنْ يجوع مع الجموع، ومَنْ يسد أعواز الجموع هو مَنْ تربض عنده الجموع لتُلقي له بآذانها. هذا هو منطق الجموع.

نظرةٌ إلى السماء، وكلماتٌ تتلو البركة، ويدٌ تكسر الخبز، تلك كانت أدوات المسيح في إشباعه للجموع، وكأنـّه يهيب بنا ألاّ نسعَى للعمل دون أن نلتمس عون السماء، ولا ندعو بكلماتٍ تخلو من

مباركة الآب، ولا نُبارِك ونزوي في أكواخنا، بل نمد أيدينا للعمل. هذا المنهج هو منهج المسيحي الحقيقي الذي لا يكتفي بالصلاة دونما عمل، والذي لا يكتفي بالعمل دونما صلاة. شباك المسيحي مجدولة بخيوط العمل والصلاة، حتّى تصيد نفوسًا وقلوبًا لله الآب وملكوته.

إنّ التعليم عند المُخلِّص لم يكن منهجًا فلسفيًّا أو مذهبًا إيمانيًّا، بل كان تلامسًا مع الأوجاع أولاً وقبل كلّ شيء، وكأنـّه يقول: أنا أشعر بغصّات أنينكم، أرى أجسادكم وأعوازكم، ولكنّي سأريكم ملامح أرواحكم التي لم ترونها قبلاً. ومَنْ لم يتعرَّف على روحه هو غريبٌ عن ذاته، والذات إمَّا تحمل صورة الله أو صورة العالم.

بداءة حياتنا في الروح هي نظرةٌ لأعلَى نرى فيها عالمًا آخر غير الذي نحياه. نظرةٌ تضعنا أمام تساؤل، وتساؤل المسيحي له جواب في الصلاة. حينما نظر الربّ يسوع إلى فوق أراد أن يجعل الجموع تنظر معه، وتتساءل ما الذي فوق يجعله ينظر إلى أعلى؛ هل يُصلِّي؟ هل ينتظر إيليّا؟ هل يطلب عونًا؟ لماذا ينظُر إلى فوق؟

نظر المُخلِّص إلى فوق ليؤكِّد للجموع أنّ خزائن الاستجابة لكلّ أعواز البشر هي من السماء، من عند الآب. أراد أن يلفت أنظارهم التي ستنصرف إلى أسفل حينما يُوزَّع الطعام، أنّ العطيّة هي دائمًا سماويّة، وإن كانت لحاجات الجسد.

ولكن، البعض يسعَى لتأمين حاجات الجسد من الأرض وينجح، أليس نجاحًا مثل هذا يُؤثـّر على إيمان مَنْ يُثبِّتون أعينهم على السماء في انتظار الاستجابة؟؟

إلاّ أنّ أسماك القرش تستطيع أن تنال غذاءها من الأسماك الصغيرة دونما عناء، بينما الصيّاد قد يبقَى يومًا كاملاً دون أن تهتز صنّارته سوى برجاءٍ لا يصير غذاء. هذا لا يعني تميُّز السمك على الإنسان، فالإنسان يحتاج إلى الصبر كفضيلة ترافقه في الحياة، بها يقتني نفسه بحسب قول القديس بولس، بينما السمك غير العاقل لا يُحرِّكه سوى جوع الجسد، والجسد نفسه سيموت ويصير مأكلاً للأسماك الصغيرة. أيّهما تختار، أن تصير إنسانًا واعيًا له مكان ومكانة في ملكوت الله، وإن كان وعيك يتطلّب بعض التدريبات من خلال الضيقة والحرمان، أم تصير جسدًا مُتحرِّكًا يأكل ويشرب ويلهو ويمرح دونما عناء في رحلة مترفة إلى قبر الأنين الأبدي؟ إنـّه خيارك أنت.

لكي يكتمل تعليم الربّ للجموع؛ بارَكَ الآب. فالبركة تسبـِق العطيّة، لأنّ البركة هي ثقة في مانح العطيّة. البركة هي قبول لاستجابة السماء وإن خالفت طلباتنا. البركة هي إيمانٌ بأنّ الآب في السماء

يسمع ويعي ويتفاعل، ويبقَى أنْ نسمع ونعي ونتفاعل نحن مع عطايا الآب. حينئذ يمكن أن يكسَر الخبز وتشبع الجموع بعطايا السماء.

نظر وبارك وكسر كظلٍّ لما سيفعله ليلة القبض عليه .. هناك في العليّة الهادئة الصغيرة. ولكلّ ظلٍّ حقيقة .. إنها جسدٌ مكسورٌ ودمٌ مسفوكٌ من أجل حياة العالم ..

## مملكتي ليست من هذا العالم

يقول المثل اللاّتيني: "إنّ الحجر المُتحرِّك لا ينبُت عليه العشب". لقد كان الربّ يسوع هو الصخرة التي طالما دعانا الروح لنتثبّت عليها. والثبات ضرورة النمو والصمود، فمَنْ يتأرجح سيسقط ويتهاوى.

ولكن صخرة المسيح لم تكن بمنأى عن دفع الأمواج، فقد كانت الجموع تطالب به ملكًا ليُملِّك، بقدراته الفريدة، اليهود، على الأمم، وقتها يعترفون به مسيحًا. ولم يكن ذلك مطلب الجموع وحدهم، ولكن الفكر تسلَّل إلى خواصه التلاميذ، فقد تباحثوا في مراكزهم بعد الثورة المنتظرة، فالعظمة تجتذب طموح البشر، والثورة دائمًا مشوبة بمصالح ضيّقة. ولكن يا لخيبة الأمل، فالمسيح لا يستخدم قدراته المبهرة لدحر الأعداء، ولا يشحذ سهام غضبه لإفناء مقاوميه، بل إنـّه يرفض أن يحمي ذاته ومَنْ ومعه!! إنـّه يدّخر قواه، إن جاز القول، لشفاء الأحبّاء.

كل الذين يأخذون السيف، بالسيف يهلكون

مت ٢٦: ٥٢

هل من قائد يرفض أن يستخدم ما يُتاح له من قدراتٍ لكيما يفوز بالمعركة؟؟ «مملكتي ليست من هذا العالم»؛ كان شعار المسيح وتعليمه بل وجوابه لسائليه، ولكن الشعوب تريد أن تزدهر على جُزُر العالم .. لا يعبأون بموانِئ الغد.

لقد دعا المسيح إلى محبّة الأعداء، فهل يقاوم الأعداء. دعا إلى قبول الإساءة، فهل يتجنّبها. هنا محكّ التعليم واختبار مصداقيّة الرسالة. لقد ظهر الكثيرون على مرّ العصور يدعون لقيمٍ ساميةٍ ولكنّهم لم يحملوا نيرها. وقفوا يشترعون نُظُمًا للجموع، وطاروا خارج السِرْب ليحيوا بوهيميّة الفوضَى، أو قُل عبث الحريّة!! ادّعوا تميُّزًا يعفيهم من القيم، ولوّحوا بصولجانٍ يرفعهم عن البشر!! فمَنْ يقرأ في تاريخ أب الشيوعيّة "كارل ماركس"، على سبيل المثال، يجده شخصًا تلوَّن حسب الظروف التي تحيط به؛

فتارة كان يهوديًّا، وقد ترك اليهوديَّة وتحوَّل إلى المسيحيَّة لا لشيء إلاّ لكي ينجو بحياته، وترك المسيحيّة وتمرَّد عليها وهاجمها بضراوةٍ بعد ذلك ليُحقِّق طموحه الشخصي. انتحرت زوجته وبناته، وُصِمَ بالسرقة، أصيب بالزهري مرّتين!! هل مثل هذا إصلاحي؟! هل من تعاليم تخرج من هذا الإنسان يمكنها أنْ تُحقِّق كينونة الإنسان وتمنحه قدرًا من التحرُّر؟! لا أظن. لقد ادّعَى مناصرة الفقراء على حساب الأغنياء، ولكنّه عمل على نزع الإنسانيّة من الجميع. نادَى بعزل الآباء والأمهات عن أولادهم؛ فالأم عنده لم تكن سوى حوضٍ من الزهور، قد وُضِعَت فيها بذرة فنمت. وانتهت مهمّة حوض الزهر، فالحوض لم يكن ليرفض تلك البذرة، والبذرة لم تملك اختيار الحوض الذي تنمو فيه. فالصدفة هي التي جمعتهما، ولا رابط بينهما إلاّ الضرورة. ألم يكن هذا التعليم هو الذي طلع به علينا البعض في عَلاقة المسيح بالعذراء مريم؟ تعليمٌ ينتقص من إنسانيّة الربّ يسوع لحساب الألوهة، وكأنّنا أمام أبوليناريّة جديدة ترى إنسانية الربّ ناقصة، والإنسانيّة الناقصة لا تشعر بروابط الحبّ والدم بين البشر. كانت تلك هي قِيَم ماركس؛ فمَنْ تحرَّك قلبه تجاه الفقراء، تجمَّد قلبه أمام الإنسانيّة وروابطها الفطريّة. فهل يُرتجَى خيرًا من تعاليمٍ مثل هذه؟؟!!

بينما نجد أن الربّ يسوع قد قَبِـلَ نِصَال تعاليمه، في حِدّتها وكمالها، قبل أن يطالب بها تابعيه. ولم يكن الصليب صدفةً أو حظًّا عاثرًا، ولكنّه كان النتيجة الحتميّة لمَنْ يتشبّث بقيمٍ لا يُثمّنها العالم في أسواقه، بل يُلقي عليها بوباله. ولكن الحجر لا يتزعزع؛ فهناك وعليه ينبُت عشب الخلاص.

العشب لا ينبُت على الحجر المُتحرِّك، والحركة إن كانت انتقال فهي طابع البداوة، سِمَة ساكني الخيام، هكذا كان الشعب العبراني في العهد القديم. ولم يكن ترحالهم المكاني سوى تعبيرٍ عن ترحالهم الفكري الذي لم يستقر على أبواب الهيكل الإيلوهيمي .. كان طعم الوثنيّة على ألسنة بعضٍ من الجماعة، يظهر على فترات .. ومازال الإنسان في حاجة إلى تجديدٍ يفوق تجديد المياه المُطهِّرة. لقد ارتحل البشر بحثـًا عن طبيعة جديدة لا تلوِّثها أطماعٌ ولا أطماحٌ .. طبيعةٌ منسوجة بخيط البراءة الفردوسيّة، خيوطٌ لا تُمزّعها الرغبة ..

لقد كانت كلمات المسيح مُستقرًّا لمَنْ ارتحل بحثـًا عن الحقّ؛ فالمسيح هو الحقّ لمَنْ يطلق عنان روحه لتُحلِّق بعيدًا عن المادّة.

أعلن المسيح عن الألوهة بمنطق الثالوث، وما الثالوث إلاّ أقانيم ثلاثة هي الله الواحد في الجوهر. ولكن هل توقّف الرحّالة عند مراعي المُخلِّص لينصبوا خيامهم؟ لا أظن. فالبحث مرضٌ قد يتجاوز الرغبة في معرفة الحقيقة، إنـّه يصبح للبعض منهجًا للحياة، وللبعض مأكلاً للعيش!!

## الدعوة

لا دعوة بلا أدوات، ومن أدوات الدعوة المسيحيّة التجرُّد. هكذا أرسل المسيح، تلاميذه، متجرِّدين من كلّ قنية، بل ومتجرِّدين من ذواتهم، فالإنسان قد يُصنَّف بما يقتنيه، ومَنْ لا يقتني شيئًا فهو ميّت في أعين العالم. ورغم التجرُّد المّادي الذي أوصَى به المسيح تلاميذه، إلاّ أنـّه لم يكن ليرسلهم دون أن يملأ جعبتهم بالقوّة والسلطان الإلهي. إنّ مواهب الله لا تُقتنَى بدراهمٍ (انظر: أع ٨: ٢٠). سِرُّ المسيحيّة يكمن في انتقائيّة ما يحمله الإنسان أثناء رحلته في عالم الناس. ولعلّ الإنسان يشتهي أن ينال السلطة والقوّة من خلال ما يحوزه من المال. ولكن ما بين قوى العالم وقوى الروح بلادٌ وبلاد ..

لا تحملوا شيئًا للطريق؛
لا عصًا ولا مزودًا ولا خبزًا ولا فضةً ولا يكون للواحد ثوبان

لو ٩: ٣

إنّ القنية وثنٌ في زمن لا يألف الأوثان الحجريّة ولا يتعبَّد لها. إلاّ أنّ الإنسان في المقابل نزع إلى الامتلاك لتصير أملاكه وثنه الجديد الذي يتعبَّد له بالحرص والخوف الواجب للآلهة!! الطمّاع عند القديس بولس هو عابدٌ للأوثان، وعابد الأوثان ليس له ميراث في ملكوت المسيح، هذا ما كتبه بالروح في رسالته إلى أهل أفسس.

لقد قيل: "إنّ نار أنانيتنا التي نوقدها في الخلاء تتغذّى على وقود الوفرة والثراء". لهذا طالب القديس بولس، تيموثاوس، أن يوصي « الأغنياء في الدّهر الحاضر أنْ لا يستكبروا، ولا يُلقُوا رجاءهم على غير يقينيّة الغنَى، بل على الله الحيّ الذي يمنحنا كلّ شيءٍ بغنًى للتّمتُّع » (اتيمو ٦: ١٧).

يرى البعض في التجرُّد قسوة إذ تنزع من الإنسان نزعته لتأمين ذاته بما يحصل عليه؛ فالإنسان يسعَى للامتلاك، ولكن يبقَى التساؤل هل نمتلِك أم نُمتلَك؟ وقد أجاب على هذا السؤال أنستانتس الفيلسوف الكلبي[١] قبل الميلاد بأربعة قرون قائلاً: "إني لا أملك حتّى لا يمتلكني أحد".

لقد كتب موريس بلونديل:

لا يستطيع الإنسان أن يربح كيانه إلاّ إن أنكره بوجهٍ من الوجوه
ناسبًا إياه إلى مبدئه وغايته،
وإن تخلّى عمّا هو خاص به،
ولاشَى نفسه التي هي لا شيء
نال تلك الحياة الممتلئة التي يطمح إليها
والتي لا يملك ينبوعها في نفسه
يجب أن يعطي كلّ شيء
في سبيل كلّ شيء

لم يكن المسيح اشتراكيًّا يحارب الأغنياء، ولكنّه كان يريد تحرير الأغنياء من سطوة المال، كما جاء ليُحرِّر الفقراء من شهوة المال، كلاهما يجب أن يتحرّر. والإنسان لا يمكن أن يتعبّد لسيدين؛ إمّا الله وإمّا المال، تلك الكلمات تنسحب على الفقراء والأغنياء على السواء، فالغني يتعبّد لما يملكه من المال، والفقير يتعبّد لأحلامه بغدٍ يعانق فيه المال، وكلاهما مرضَى العبوديّة.

لذا فمَنْ يتجرّد، يتجرّد من تحليقه في دائرة المال، ومن بريق الذهب والفضّة الذي يتمايل على خياله الحالم. ومَنْ يتجرّد من محبّة المال، فقد أكمل التجرُّد وإن كان ثريًّا، ولعلّ إبراهيم كان المثال الصارخ لإنسانٍ لم يطمح في المال، وحينما جاءه، لم ينصرف عن تقواه، بل صار المال جوادًا يمتطيه في سيادةٍ.

هناك مَنْ ترك ماله، ولم يترك المال خياله، فكان يتأرجح بين الله والمال، فصار فقيرًا فيما لله، وفقيرًا فيما للعالم، وسقط صريع الموج العاتي، إذ لم يَرْسُ على ميناء الله كما لم يبق على ميناء العالم.

مَنْ يتجرّد ليس له ما يعيقه، ليس له ما يجتذبه لمدينته القديمة، ليس له ما يخشَى عليه؛ وكثيرًا ما كانت إعاقة العالم وجاذبيّة العالم والحرص على ما في العالم عائقًا للسائرين على دروب الملكوت.

[١] الكلبية هي فلسفة رأت أن الفضيلة هي الضرورة الوحيدة للوصول إلى السعادة وقد اتخذت من الكلب شعارًا ورمزًا لأنّه لا يعبأ، مثلهم، بالمجتمع.

القنية هي كلّ ما هو زائدٌ عن الحاجة، والحاجة هي ما ينبت في يومنا الحاضر .. في لحظتنا الراهنة. لذا كانت دعوة المسيح ألاّ نهتم ونكترث للغد، فاليوم هو محور زمن الوجود، من تلك النقطة يمكننا أن نفهم أنّ التجرُّد هو الواقعيّة اليوميّة التي يجب أن نحياها، فنحن لا نملك إلاّ لحظتنا الحالية التي تفر باستمرار، وعلينا أن نسعَى لتحويل تلك اللّحظة إلى لحظة أبديّة من خلال سلوك وصلة مستمرّة مع الله. فالغد غير مضمون في كلّ الأحوال، ومَنْ يثق في غده كمن يثق في أنـّه قبض على الهواء بيده!! لذا كان التجرُّد هو الواقعيّة التي أرادنا المسيح أن نحياها، فإن كان الغد يستحيل استشرافه والإمساك به وطيّه لنضعه في جيوبنا، هكذا ما نقتنيه للغد هو سُّحُب في سماء الرياح ليست لها مكانٌ لتستقر. فالقنية دائمًا هي محاولة لتأمين الغد، ولكن المسيح يؤكّد لنا على الدوام أنـّها محاولة فاشلة لأنـّها قائمة على قياس متغيّر هو الغد، وما أكثر القصص التي نرى فيها تقلُّب البشر على فراش الغد يمينًا ويسارًا، فَلَيْلَة كافية لأن تحيل الغني شحّاذًا، والفقير ثريًّا؟؟!! لذا فمَنْ يحاول أن يُؤمِّن غده باقتناء المال، كمَنْ يحاول أن يمنع دخول الهواء إلى غرفةٍ بلا جدران!! إنه عبث الحلم الإنساني اللاّواقعي .. لذا كان التجرُّد من الاتّكال على المال ضرورة مسيحيّة لا غنَى عنها لمدعوي وليمة الملكوت، ولمرتادي دروب الملكوت .. لذا فإنّ المتجرِّدين هم المدعوون للسير خلف الربّ يسوع ..

## أن ننظر

هناك الكثيرون ممّن يتبعون المُخلِّص؛ أو بالأحرى يسيرون خلفه، يفتقدون الرؤية. هم يسيرون لأنّ آخرين قالوا لهم إنّ هذا هو حمل الله، كما قال يوحنّا المعمدان لتلميذيه حينما عَبَرَ الربّ يسوع كطيفٍ من نورٍ أمامهم.

مَنْ يتبع المُخلِّص عليه أن يرى فيه محور الحياة، وضرورة الوجود وغاية الزمان، عليه أن يراه قائدًا لمسيرة الإنسان بل والإنسانيّة إلى بهو الأبد المُتّسع. مَنْ لا يقتاده يسوع، يقتاده العالم، ومَنْ لم يتعرّف على قائده لن يبقَى معه على طول الطريق. كان أندراوس أخو سمعان بطرس أحد الّذين تبعا الربّ يسوع حينما أشار إليه يوحنّا المعمدان، ولكن مَنْ كان الآخر؟ هل استمرّ في مسيرته خلفّ المُخلِّص أم تراجع عن المسيرة؟ لا ندري، ولكنّه لم يكن أحد الذين تقرّبوا من الربّ ليصيروا له خواصًّا، وإلاّ لذكره الإنجيل ضمن الاثني عشر. هناك دائمًا مَنْ يتبعون الربِّ إلى حينٍ، وهذا الحين قد يكون الشكّ

أو التجربة أو الضيقة أو العالم، كلّها أوجه لمَنْ يسير دونما علاقة مع قائده، هو يبقَى دائمًا أقرب للأبواب منه للبيت.

فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان، فقال لهما: "ماذا تطلبان؟"

يو ١: ٣٨

إحدى إشكالياتنا أننّا نكتفي بالسير فيما يشبه القطيع المُغيَّب دون أن يكون لنا تفاعل شخصي مع المُخلِّص؛ نلتقط كلمات من هنا وهناك لنرسم بها صورة للربِّ في أذهاننا، ونتلوها على مَنْ يسألنا عن إيماننا، دون أن ندع فرشاة الروح تُجمِّل صورتنا الذهنيّة عن الربِّ بالتفاعل والدخول معه في حوارٍ منفتح دونما خجلٍ أو خشيةٍ. وحينما نفتح قلوبنا أمام هبوب الروح، سيلتفت إلينا الربّ يسوع كتلاميذ، طالبين الحياة والحقّ. علينا أن نلفت أنظار المُخلِّص إلى إصرارنا على السير خلفه، وقتها ستبدأ العَلاقة ويبدأ الحوار.

التفاتة الربّ ليست عابرة، ولكنها فاحصة، فهي التفاتة مصحوبة بنظرة عميقة؛ إذ التفت ونظر. ولعلّ الكلمة اليونانيّة المُسْتخدَمة للتعبير عن نظرته تحمل معنَى النظرة الثابتة الفاحصة، وكأنـّه كان يدرس أشواقهم بعينيه.

بادئة كلمات المُخلِّص هي؛ ماذا تطلب؟ ماذا تريد؟ فالإنسان هو مزيجٌ من التطلُّعات والرغبات. هناك قطبٌ على الدوام يجتذب إرادته ورغبته، ورغبات البشر قد تكون مغلّفة بالنوايا الطيّبة والأشواق البريئة، ولكنها قد تحمل في طيّاتها نزوعًا إلى آخرٍ غير الحقّ .. غير الأبد .. غير المُخلِّص.

حينما يأتي معظم البشر إلى الربّ، يأتون مُحمّلِين بمئات الطلبات!! والطلب تعبير عن توجُّه القلب وبوصلة تشير إلى قطب الإرادة.

هناك إرادتان في الإنسان؛ إرادة تُحرِّكها قوى الضرورة الملتحفة بكلّ ما هو زمني، وإرادة التحرُّر السابحة نحو المُطلق. إرادة التحرُّر يدفعها شوقٌ يجهله ساكنو الإنسان العتيق. شوقُ التحرُّر كان مسار حيرة العالم على الدوام، لم يفهموا مصدر الشوق والنزوع إلى المطلق، الساكن في قلب الإنسان. رآه البعض قبسًا من شخوصٍ كانوا يحيون في الماضي وقد حملوا معهم ذكريات هي خليط بين الزمن والأبد. لقد رأوا في الشوق دليلاً على تناسخ الأرواح!! ولكن يبقَى السؤال: من أين اقتطفت تلك النفوس ذكراها الأولى؟ هل هي مولودة بالذكرى؟؟ سؤال لم يجبه القائلون بتناسخ الأرواح!!

الشوق في إيماننا هو وليد صورة أصليّة حاملةً سِمَات إلهيّة، ولكن في وعائنا النسبي المحدود. ما بين حركة يد الخالق بتشكيلنا من الطين، وما بين نسمته بإحيائنا، صرنا بشرًا، نحمل في جعبتنا خيط التراب المخلوق وختم الروح الإلهي؛ الأوّل يُثبِّت أقدامنا على أرض الزمان الحاضر، والأخير يُحلِّق بنا في فضاء التمرُّد على قناعات الحواس وأغلالها. فالحواس قد تصير سجنًا لها أغلال وأسوار وحُرّاس. ما بين الإرادتين نتحرَّك.

هناك دائمًا ما يُغذّي الإرادة؛ إمّا التراب وإمّا الخلود لا خيار ثالث. إنْ تغذّت الإرادة على تراب الشهوات صارت زاحفةً على الأرض؛ وإنْ تغذّت على رجاء الخلود صارت طيرًا يسبح في الهواء. غذاء التراب قد يكون الاكتفاء بدورة الحياة من الولادة والنمو والزواج والعمل والإنجاب والتربيّة دون التطلُّع إلى دورة الأبديّة القائمة على دعوة الإنسان إلى القداسة والاكتمال في الثالوث.

منّا مَنْ يحيون في دائرةٍ يفرضها قانون العالم؛ يعملون لكيما يحيوا هم ومَنْ يعولونهم، وبالفعل يحيون، ولكن بحسب الجسد أمّا الروح فضامرة. أن نسعَى وراء حاجات الجسد ضرورة وواجب، ولكن، هل يحيا الإنسان بالطعام والسكن والملبس ... ؟؟ لماذا لا يكون السعي في الحياة متوازيًا مع السعي للأبديّة؟ لماذا هما ضدّان في حياة الكثيرين الآن؟ قد يقول البعض: الوقت. ولكن مطلب الله ليس الوقت ولكنّه افتداء الوقت، لا يطالبنا بالانعزال لتكريس الوقت بجملته، ولكنه يطالبنا بتحويل الزمان الحاضر إلى لازمان أبدي بتطبيق قانون المسيح في حياتنا وعَلاقتنا ومعاملاتنا وقِيَمنا. وقتها ستنمو الروح، ولن يموت الجسد.

للروحيين يبقَى الكون والبشر هم صالة عرض تحمل لوحات بها من الأسرار أكثر ممّا يراه الناظر إلى الظاهر؛ فالكون والبشر يُعبِّرون عن فنٍّ أبديٍّ ممهورٍ بإمضاء الخالق، هذا ما يجب أن نراه لافتداء الوقت، وحينما نفتدي الوقت سنعانق الحريّة، فتنمو إرادة الوجود في أوج الأبد برفقة المُخلِّص، وبالسير وراءه. لذا فإنّ السائر خلف الربّ والذي يلقي عليه المسيح بالسؤال؛ ماذا تريد؟ يجب أن يكون جوابه هو: التمتُّع بتلك الرفقة أينما قادته، وهذا الشعور وتلك القناعة كفيلة بأن تُنمّي في النفس حِس الحياة الجديدة والحريّة الحقّة.

ولكن قبل أن نتمتّع بالرفقة علينا أن نذهب لنُعاين أين يمكث الربّ يسوع؟

تعاليا وانظرا

يو ١: ٣٩

ما الذي نتوقّعه في مسكن الربّ يسوع؟ هل سنرى جنائن وحدائق وقصور شاسعة رخاميّة العُمُد وعربات فارهة وخدم وغنًى وسلطة وشهرة؟ هل سنرى ملائكة موكلين بتحقيق أحلامنا الأرضيّة؟؟ مسكن يسوع هو اللاّمكان في الزمان الحاضر؛ ليس له أين يسند رأسه، مكانه في الإنسان لا في المكان .. هناك يستريح.

لقد كتب رينيه فوايوم: "لقد اختار الفقر ببساطة ودون تكلُّف، في بعض فترات حياته، يتّخذ فقره شكلاً قاسيًا من التعرّي الكامل، كما في ميلاده وموته، ولكنه فقرٌ لم يبحث عنه. كسائحٍ فقيرٍ لا يتعلّق بشيءٍ؛ وُلِدَ يسوع خارج بيته، لا يملك شيئًا. يقبل بالطعام والمأوى حسب الظروف، أيام لا يأكل فيها، وفي أيامٍ أخرى يشترك في مآدبٍ فاخرة، يمضي ليلةٍ في العراء أو في أوّل بيت يلقاه، بيت فقير أو غني أو صديق حميم. يستعمل، حسب الظروف، كلّ شيءٍ، بحريّة ..."

أنّ ننظر مسكن المُخلِّص هو أن نتعرَّف على ضريبة السير وراءه؛ فلن نكون من صفوة المجتمع ولا أغنياءه، سنكون متجرِّدين معه، فقراء معه، جائلين معه، مُضطّهدين معه .. مسكن الربّ يسوع هو الوصيّة بوعدها الأبدي وبقسوتها الزمنيّة. هذا ما سنراه هناك حيث الربّ ساكن.

سنرى عنده قانونًا جديدًا يحكُم العَلاقات؛ قانونًا لا يخضع لتقلّبات البشر، لا يقوم على ردود الأفعال الإنسانيّة، لا ينتقم للذّات، لا يصارع شخوصًا. هناك سنرى قانون الحبّ متجسِّدًا ومتجليًّا ومُشرقًا.

أن ننظر يعني أن نتخرّج من معاهد الخيال إلى واقع الرؤية؛ أن نفضّ محارة السرِّ لتكشف لنا عن خباياها. ولكن المعاينة الإلهيّة ليست إلاّ بحرًا من الأسرار يسيل من شروخ الزمان والتي تفتح ثنايا من ضياءٍ نرى من خلالها ما حجبه الزمان عنّا. نرى واقعنا الجديد المُعلَّق على أشجار المستقبل العتيد أن يُستعلن لأبناء الله. وحينما نلتقط خيطًا من المعاينة ونتتبّعه إلى مسكن الربّ، سنرى موضع سُكنَى المُخلِّص؛ في مجدٍ لا يُدنَى منه، في شاكيناه العهد الجديد غير المرتحلة ولكن الباقية لمَنْ يبقون في ظلال ضيائها.

## وجهٌ من نور

بينما كان الليل يلفّ الكون، والظلمة تُحلّق على القلوب والعقول، وصدَى الموت يتردَّد على مسامع الخليقة .. صدَى لا يحمل همهمات لرجاءٍ يبدو أنّه قادمٌ. منازل البشر وأحلامهم مُطفأة السُرُج. ظلّ الموت يرخي سدوله على الجميع وكأنّه جبارٌ يُخيّم على المسكونة بأجنحته السوداء لئلا يصلها شعاعٌ من ضياء .. حتّى وُلِدَ الربّ يسوع .. أشرق نورٌ انسكبت أشعّته على قبور الحياة الإنسانيّة. لقد جاء النور إلى العالم، ليُعْلِن أنّه النورُ للعالم.

أنا هو نور العالم

يو ٨: ١٢

نوره صار لنا هتاف تسبيح وأنشودة حمد نُردّدها في سهرنا اللّيلي (ثيوطوكيّة الإثنين) معلنين أن فجر الضياء لنا هو المسيح، وليس إشراقة شمسٍ مخلوقة:

الله هو نور
وساكن في النور
تُسبّحه ملائكة النور

« أنا هو نور العالم »؛ كلماتٌ لم يقلها الربّ على جبل التجلِّي بينما كان وهج الضياء يتلألأ منه، ولكنها كلمات قالها بعدما أطلق المرأة التي أُمسِكَت في الفعل المُخجِل، وكأنّه كان يعلن عن سرِّ انهزام الظلمة أمام حنوِّه على الخاطئة. أعادت كلماته اللَّهب لمجامر القلوب المُنطفئة بالخطيئة، فبدأ ينسلّ شعاعٌ من بخورٍ عطرٍ، يتصاعد كبرقعٍ حريري عن وجهٍ قيّده خمار العالم.

« أنا هو نور العالم »، كلماتٌ قالها في خزانة الهيكل، في رواق النساء، المكان العّام الذي يستوعب كلّ أطياف الشّعب؛ هناك كانت توجد أربع منارات ضخمة ترتفع كلٌّ منها ٧٥ قدمًا، بها أربع قوارير ذهبيّة للزيت، يملأها أحد الشباب المنحدر من النسل الكهنوتي، وكانت تُوقَد في الليلة الأولى من عيد المظال أو عيد سوكوت *Sukkot* بحسب الاصطلاح العبري، بعد الذبيحة المسائيّة. كانت المنارات تُلقي بضيائها على المدينة كلّها، وكان الجميع يحتفل حولها بفرحٍ عظيمٍ إذ كان يرقُص الأتقياء حول المنارات الأربع وهم حاملون في أيديهم مشاعلَ، بينما يعزف اللاّويون على القيثارات والدفوف.

كانت المنارات منيرة بالليل، وكأنّها عمود النّار الذي كان يصحب الشعب التائه قديمًا. كان هذا هو المثال والرمز للمسيّا.

عند الرابيين؛ "النور هو اسم المسيّا"، فقد أنار المسيح الحياة والخلود، وأشرق للشعب الجالس في الظلمة وظلّ الموت.

كانت الخاطئة مُلقاة على الأرض وقد رشقها الحاضرون بوابلٍ من الاتّهامات، بينما كانت خيوط الظلمة تزحف لتخنق شعلة ضوء النّهار، حتّى جاءت كلمة المُخلِّص لها، لتُطلِق المرأة المُدانة، بالغفران. وقتها أُشعِلَت شمعدانات الخزانة بضيائها الصدّاح، فكانت كلمات المُخلِّص: « أنا هو نور العالم ». مشهدٌ يعجز اللّسان عن وصفه ويقشعر أمامه البدن؛ مشهد تحرُّر الإنسان الساقط (المرأة) من الدينونة والخطيئة والموت، وتحرُّر الكون من الظلمة بضياءٍ ليس مصدره مشاعل زيتيّة، ولكن شخص المخلِّص .. الإله الكلمة.

منذ ذاك الحين وطلبة البشريّة ورجاء صلاتها يناجيه قائلاً: "تعالى إلينا اليوم يا سيّدنا المسيح وأضِئ علينا بلاهوتك العالي .." إنها تسبحتنا فجر كلّ ثلاثاء.

كانت كلمات الشاعر الألماني الشهير جُيته على فراشه أثناء ملاقاته الموت: "المزيد من الضياء! المزيد من الضياء!" .. بينما طلب أحد القديسين في لحظاته الأخيرة ممّن حوله أن يطفئوا الأنوار قائلاً: "لقد أشرقت الشمس". مَنْ يخنقه الظلام يبحث عن الضياء كغريقٍ يبحث عن خشبة النّجاة، ومَنْ يُدْرِك النور الحقيقي لا يعبأ بظلمةٍ زائفةٍ مؤقّتةٍ تحيطه من خارج.

هناك مَنْ يتوصَّل إلى معرفة الله بخبرةٍ أليمةٍ من فقر وقسوة الظلام، وهناك مَنْ يتوصَّل إلى معرفة الله بإشراقة النور البَهِج. لكلٍّ منا مدخل، ولكن تبقَى ردود أفعالنا هي التعبير عن وعينا واختيارنا .. إن اخترنا النور علينا أن نتيقّن من صدق منبع النور .. فقد يتشكّل الشيطان في شبه ملاكٍ من نور!!

حينما نبحث عن ماهيّة النور نبحث عن معنَى الحياة نفسها. فالحياة لا تُعاش إلاّ تحت شعلة النور، والإنسان لا يستطيع أن يسير إلاّ على أرضٍ قد سبق وافترشها النور. كان النور أوّل خليقة الله؛ كلمةٌ قالها فأغرق الكون، المُزمَع أن يتخلّق من العدمِ، بالضياء. لقد بدأ بالنور لأنـّه ما من حركة ولا حياة دونما ضياء.

النور هو غذاءٌ للنبات .. ضرورة حياة .. بدونه تبقَى البذرة في كفنِ الأرضِ .. تموت وحدها. ونحن إن لم نـَـرَ أنّ النور ضرورة سلوك وغاية أبديّة، لن نكون أبناء النور، ولن نستطيع أن نسلك كأنوارٍ في العالم، كما لن نُعاين بهاء ومجد النور الأبدي. إنّ المُخلِّص يحمل في ذاته سِرَّ الحياة الجديدة القائمة المُنْتشلة من بين أظافر الموت، وما الحياة الجديدة إلاّ نور للعالم ..

فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس

يو ١: ٤

إنّ نور المُخلِّص ليس لمحة عابرة لخلاصٍ مؤقّت من الظلمة، ولكنّه نور ينبع من الحياة ويصبّ في الحياة، فتجديد الحياة هو محور عمل النور بل وغايته أيضًا.

ينشد القديس غريغوريوس اللاّهوتي عن الاستنارة / المعموديّة، فيقول:

الاستنارة هي ضياء النفوس وبهاؤها وتغيير الحياة.
هي قضيّتنا مع الله.
المعموديّة هي مساعدة ضعفنا،
دفع بهيميتنا إلى الخارج،
اتّباع الروح القدس،
شركتنا مع الابن.
هي قيام الخليقة المُنْطرِحة،
وإغراق الخطيئة،
وانحلال الظلمة والشركة مع النور.
الاستنارة هي عربةٌ تنقلنا إلى الله،
هي تغرُّبٌ مع المسيح،
وسند للإيمان،
وكمال العقل،
ومفتاح ملكوت السماوات،
وانتقالٌ إلى الحياة،
وفك القيود،
وإلغاء العبوديّة ...

إنّ ضياء الربّ هو نعمته التي تُرافِق من قبلوها ظِلاًّ ملاصقًا لحياتهم. لقد سمَّى الآباء المعموديّة استنارة، لأنّ فيها ننتقل من ظلمة الموت إلى نور الحياة ونور القيامة، وحينما ينعكس ضياء النعمة علينا نستنير، وكأنّنا صرنا مصابيح مُتحرِّكة لهداية عالمٍ يستمرِئ الظلام.

المصابيح توضَع على المنارة لتنير لتائهي العالم العابرين بين لُجج المتلاطمة. من استنارة المعموديّة تبدأ استنارة الحياة وخوض رحلة معرفة الله بالعمل والنعمة. ليست الاستنارة أنّ ندرك الله في ذاته ..

في جوهره .. ولكن أن نستشعره يملأ عالمنا ويُجدِّد أذهاننا بلمسات نعمته التي تُعلِّمنا السير على هدي الحقِّ الأبدي.

إنّ النور يتخلَّق من النار المشتعلة، وحينما يخبو اللَّهب يخبو الضياء. ونحن حينما نشتعل شوقًا وغيرةً بروح الله الساكن فينا، يتأجَّج داخلنا لهب الحضرة الإلهيّة التي تُلقي بضيائها على مسكن القلب، فيستنير، ويبدأ في التعرُّف إلى ما هو من النور وما هو من الظلمة.

الله ساكنٌ في نورٍ لا يُدنَى منه، ولكن في الربّ يسوع صارت لنا الإمكانيّة لأن ندنو من النور لننظره؛ أو بالأحرى أن يدنو هو منّا ليتيح لنا أن ننظره؛ « كثيرون يقولون: 'مَنْ يُرينا خيرًا؟'. ارفع علينا نور وجهك يا ربُّ » (مز٤: ٦).

النور الإلهي أصبح نارًا مُطهِّرة لآثامنا .. لم يعد نور الله مُرهبًا لضعفنا كما في القديم؛ إذ قد ارتاع الشعب الإسرائيلي قديمًا حينما رأوا النار العظيمة وألسنة اللّهب تصل للسماء من وسط الظلام، والجبل يموج بجلبةٍ .. يحوطه سحابٌ وضبابٌ .. سمعوا الصوت ولكنّهم ارتاعوا من رؤية مجد الله الحيّ، فأرسلوا عنهم موسَى ليعاين وينظر ويسمع وحده لأنـّهم خافوا أن تبتلعهم النّار الإلهيّة؛ « وأمَّا الآن فلماذا نموت؟ لأنّ هذه النّار العظيمة تأكُلنا. إنْ عدنا نسْمعُ صوت الرّب إلهِنا أيضًا نموت » (تث ٥: ٢٥)

مَنْ يخشى من نار المجد يخشَى من قبح أعماله وأسراره التي تتجسّد فيها الظلمة. مَنْ يقترب من نور المسيح لن يموت ولكن سيشرق عليه شمس البرِّ لتطهيره من الخطايا السالفة. إلاّ أن التطهُّر هو عملٌ دائم لم يحدث مرّة واحدة وانتهَى الأمر؛ نحن نحتاج إشراقة النور كلّ صباح، لأنّ موت العالم يحاصرنا ويخترقنا في كلّ مساء .. إن سكنّا في دائرة النور واللّهب الإلهي نقبل الحياة ونستنير ونُعاين، بل ونلمس بجسدنا الجديد، الحياة الأبديّة ...

إنّ مناجاتنا لله كلّ صباح هي: "ليُشرِق لنا نور وجهك، وليُضِئ علينا نور علمك الإلهي"، وذلك لأنّ المُخلِّص هو "النور الحقيقي الذي يُضيء لكلّ إنسانٍ آتٍ إلى العالم"، هكذا ندعوه في صلاتنا. بل وهو "الذي أظهر لنا نور الآب" حسبما كتب القديس غريغوريوس اللاّهوتي في ليتورجيّته.

إنّه اللّهب الذي تجسَّد لكي نستطيع أن نبصره ونرى في وجهه مجد الآب. في المسيح، أصبح نور الله يعني دفء الحضور الذي يُلطِّف من قساوة القلب ويذيب كلّ ثلوجه المترسبِّة عبر عشرات السنين. إنـّه حالة نختبرها في الصلاة حينما نلمح شعاعًا من الاستنارة يُجدِّد مفاهيمنا الحياتيّة ويعيد ترتيب

أولوياتنا ويملأنا بسلامٍ نترجّى ديمومته. نور المُخلِّص المُشرِق في الصلاةِ هو نورُ الثالوث عينه الذي يُحفِّز الإيمان الرّاكد في قلوبنا ويهبنا شجاعة المُجاهرة به، بل ويعطينا كلمات الصلاة والشهادة.

عند المُخلِّص سننظر نورًا لا يأتي مثله من مصابيح العالم ولا شموسه. نور الحقِّ هو ما سنراه عند الربّ وفيه وبه ..

إنّ هذا النور هو الإله، هو القدير،
هو أيضًا فائق الرقّة والدعة.
آه! كيف يراعي الإنسان في معاملته له! ..
إنّه لا يثقّل على الروحِ المُهمّشة بالخطيئة،
لكنّه يشفي القلب المسحوق باليأس ...
هو يوحي للروح بالرجاء وبغلبتها.

هذه هي المعاينة والخبرة التي يرصدها لنا الأرشمندريت صفروني سخاروف.

قد يرى البعض أنّ له من المعارف والعلاقات ما يكفي لتأمين ضياءً للمسير والنجاح في العالم، ولكنّه لا يعلم أنـّه قد قرَّر السير على ضياء شمعة خافتة وسط عالم يموج برياحٍ عاصفة ستذبح اللَّهب في مهده. ولكن ما الذي يجعلنا نُفضّل شموعنا الذاتيّة عن شمس البرّ؟ كانت إجابة المسيح: الأعمال الشريرة.

إنّ الرؤية هي شركة بين العين والنور؛ فالعين لا تملك القدرة على الرؤية وحدها. فارقٌ كبير بين الرؤية والقدرة على الرؤية. أن نجاهد فتلك هي القدرة ولكن أن نعاين فتلك نعمة وشركة يهبها الله لنا بإشراقة مجده. إنْ تواجد شخصٌ بصير في غرفةٍ مظلمة لن يرى شيئًا، وإنْ تواجد أعمَى تحت وهج النور لن يرى شيئًا!! النور والعين هما العمل الإنساني والنعمة الإلهيّة، بدونهما لن تتحقّق معاينتنا القلبيّة لله.

ولكنّ هل يمكن للنفوس التي لم تَتَلَقَّ تطهيرًا من الروح أن يكون لها شركة مع النور؟ يجيب القديس مكاريوس الكبير في رسالته الثانية فيقول: "النفس التي لم تتعرّف بعد على الروح فإنه يستحيل عليها أن تقترب إليه ولا أن تشخص في ضيائه الإلهي أو تعيش في نوره البرّاق". ومعرفة الروح تبدأ حينما نولد من فوق ..

## الميلاد من فوق

ينبغي أن نُولَد من فوق، تلك هي الضرورة المسيحيّة لنبقَى في كنف الروح. إن وُلِدنا من أسفل صرنا أبناء العالم، أو قُل صرنا العالم. الولادة هي وجودٌ في عالمٍ لم يكن موجودًا لنا من قبل. ولكن، هل يُولَد العالم للإنسان الذي يُطلِق أولى صرخاته في مواجهة الحياة، أم يولد الإنسان في عالمٍ قد ألِفَ الإنسان ومأساته؟ كلاهما أعتقد. فنحن نولد في لفائف الزمان، بينما العالم يُولَد في لفائف أعيننا التي تبدأ أولى حركات البصر.

إن كان أحد لا يُولَد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله

يو ٣: ٣

كلّ ما هو فوق رؤوسنا هو ذلك الـ "فوق" الذي ينبغي أن يتمخَّض بنا، ليُطْلِقنا بنينَ للحياة الأبديّة البهجة. يجب أن نُولَد من فوق القناعات العالميّة التي يعتنقها الجموع وكأنـّها الحقّ؛ فإن كان آلاف العميان قد اتفقوا على عدم وجود الشمس فهذا لا يعني أنّها ليست موجودة، يكفي أن يراها بصير. البشر هم أسرى الأعداد؛ فكلّما ازدادت أعداد القناعات كلّما استقرّ لها الضمير وكأنّها لوح الشريعة. إلاّ أنّ ضمير المسيحي لا يستقر إلاّ في قناعات الروح، وإن كان وحيدًا في إيمانه، وإن كانت الجموع تنعته بالجنون، أَلَم يكن المسيح مُختلَّ العقل في أعين أقربائه؟؟!!

أن نُولَد من فوق، يعني أن نتعرّف إلى عالم الفوق؛ نتآلف معه، نصادقه، نؤمن به. هناك ليست الحواس هي بوصلة الحقّ، بل الروح الساكن في مَنْ قبلوا الولادة من فوق. هناك جمعٌ ممّن تغرّبوا عن عصورهم وأناسهم، لم يألفهم العالم، وهم لم يألفوه، لم يفهمهم العالم، ولكنهم فهموه وتخطّوه، لم يرتحْ لهم العالم، فتركوه، في موتٍ أو إماتةٍ.

العالم لا يقبل شركة ما هو فوق لأنّ الظلمة لا تحتمل فيض النور، والله لا يقبل انقسام القلوب ما بينه وبين العالم، لأنّ الحبّ والبغضة لا يتشابكا الأيدي. فلكلٍّ طريقه.

لقد صرخ الفلاسفة الوجوديون من كمّ الضرورات التي تحيط بالإنسان، وتتركه بلا خيار. آلمهم أنّ الوجود لم يطلب آراء البشر قبل أن يولدوا. الغنى والفقر، المرض والصحّة، الجنس واللّون، المذهب والعقيدة، الأهل والأصدقاء، الجينات والموروثات، كلّها تُحاصِر الإنسان دون أن يكون له رأي أو خيار، فكانت فلسفتهم هي انتزاع الحريّة الكاملة، في عبثها وفي فوضويتها في كثيرٍ من الأحيان، ليكون

المرء هو المُتحكِّم الأوحد في أعماله. كانت وجوديتهم هي الوجوديّة الحرّة، ومن الذين حملوا لواء تلك الحركة؛ مارتن هيدجر وجان بول سارتر.

لهؤلاء كانت كلمات المسيح التي طفت على مياه العالم، وطافت بحاره؛ ينبغي أن تُولَدوا من فوق، ذلك هو خياركم، ومصيركم. ليست الحياة هي المنتهي لتصبح الضرورات سجنها وقضبانها.

الوجود في النور أو الظلمة هو قرار الإنسان، بل قُل هو القرار الإنساني، وما نجاهد ضدّه من موروثات خاطئة يُفجِّر أنوارًا بالأكثر من جسدنا الجديد الذي سيكتمل حينما يلبس الفاسد عدم فساد. الضرورة ألمٌ إن كانت الحياة هي المُطْلَق، والعالم هو الأبد، ولكن طالما هناك فوق، ليست هناك ضرورة بل قرار؛ إمّا الولادة من فوق وإمّا الولادة من العالم، والعالم يلد للموت، بينما الـ "فوق" يلد للحياة.

ولكن القرار يعني خيارًا .. القرار قد يُخطِئ أو يصيب .. والخيار والخطأ هما الألم الذي يعترينا ونحن نوقِّع على وثيقة قرارنا. نخشَى الخطأ لأنّنا نخشَى المسؤوليّة .. ونخشَى المسؤوليّة لأنّنا نخشَى صرخات الضمير الذي يضج مضاجعنا. إنّـه القلق الوجودي الذي لن ننفلت منه إن لم نولد من فوق.

الولادة من فوق لم تكن إحدى حلقات الولادات المُتكرِّرة للتطهُّر، ليست مرحلة في عجلة الميلاد الفيثاغوريّة بالتنقُّل بين الكائنات والتي أُطلِقَ عليها التناسخ، إذ تنتقل الأنفس بعد الموت إلى أجسادٍ أخرى حسب أعمالها السابقة!! ميلادنا من فوق يكفي ليبقينا إلى الأبد في صُحبة الجمع النوراني .. جمع الأطهار.

الولادة من فوق ليست نظريّة ذهنيّة يقبلها المسيحي فيخلُص؟؟!! فالنظريّة ليست واقعًا سوى في الخيال، والخيال لا يتجسّد إلا بملامسة الواقع. أن نُولَد من فوق يعني أن نستيقظ من سُبات ما أسميناه واقعًا. فالميلاد يقظة واستفاقة. واليقظة تنقلنا من الحلم إلى الحياة، ولكن ما بين واقع العالم وواقع الله صحراء جرداء يجب أن يعبرها كُلُّ باحثٍ عن الحقّ.

هناك فارق بين الذات العارفة والذات الحيّة في صميم التجربة الإنسانيّة. الذات الحيّة هي التي تتسلّم قياسها ومنطقها وأفكارها من المسيح، حينما تحيا بفكر المسيح من خلال الشركة معه، إنّها تنفتح من خلال تلك الشركة على الفيض اللانهائي من المطلقات التي لم تكن لتُدْرِكها بحواس الجسد المحدودة، في تلك اللحظة تبني قناعاتها على الإدراك الجديد الذي عاينته من خلال المسيح، فتخطو

فوق المعرفة النظريّة الزمنيّة لتُبشِّر بعالمٍ آخر غير قابل لقياس المنطق الموضوع في بوتقة الزمان، هنا يبدأ ميلادٌ جديدٌ من فوق يتجدَّد بتجدُّد العَلاقة وعمقها.

يرى الفيلسوف مارتن بوبر أنّ إشكاليّة مؤمني العصر الحديث أنـّهم على درجة عالية من الوعي بذواتهم كمُصلّين ومُتعبّدين ممّا يستحوذ على وعيهم حينما يتوجّهون ناحية الله. يرى بوبر أنّ الوعي بالذات "تورّم على نحو بالغ الحدّة" .. قد تحرّك ليقف حائلاً بين وجودنا الإنساني ووجوده الإلهي!!

لم يأتِ المسيح ليحشو رؤوسنا بنظريات أخلاقيّة ذهنيّة وتصوريّة، ولكنّه جاء ليلدنا من فوق لنلمس ونستنشق ونبصر وننصت للوجود الكُلّي، أي إننا مولودون لنحيا لا لنتخيَّل .. فالحقيقة ليست المعرفة النظريّة ولكنّها المعرفة التطبيقيّة التجريبيّة، وإن كان التطبيق يتخطّى الحواس والقدرات الإنسانيّة في الكثير من الأحيان، إلاّ أنّ الخبرة هنا نتحسّسها بحواس الروح، لتُصبح حقيقة موجودة وليست نظريّة. فالأبديّة التي لا نلمسها بحواس الروح لن تكون حقيقة في قناعاتنا وسلوكنا مهما كانت خُطبنا مُحمّلة بتلك الكلمة .. نصل هنا إلى أن قياس الإنسان لا يتوقّف عند حدود الحواس الحسيّة ولكنّه يتخطّاها إلى الحواس الروحيّة التي ينمّيها فينا الروح ليل نهار لنُدرِك جُملة الوجود؛ ما هو مرئي وما هو غير مرئي ..

لقد توقَّفت الغنوسيّة عند حدود المعرفة لذا لم تحيَ بل ماتت في مهدها. المعرفة هي خطوة على طريق الحياة، هي بمثابة الخارطة والإعداد للطريق، ولكنّها ليست بديلاً عن الطريق. عالم الغنوسيين به خيوط من الشرّ، وقد وُهِبَ للبعض شعلة إلهيّة روحيّة وقد أسموهم "الروحانيين" ولهؤلاء الخلاص مضمون، هكذا اعتقدوا!! بينما مَنْ لم يحصلوا على تلك الشرارة الإلهيّة هم فاقدو الروح، ولن يمكنهم الخلاص وقد أطلقوا عليهم "الجسدانيين أو المادّيين"، وهناك "النفسانيون" الذين يمكنهم الحصول على درجةٍ ما من الخلاص من خلال الإيمان!!

بينما عالم المُخلِّص يهب القدرة على النجاة من خلال الوجود فيه؛ أي الوجود في المسيح. عالمه يقتضي الولادة من فوق، والموت في خضمّ الحياة، والقيام بدفع قيامته. لذا فإنّ الغنوسيّة ذاتيّة الحركة، بينما المسيحيّة إلهيّة الحركة. هذا أحد الفوارق بين الاثنين.

أن نُولَد من فوق يعني أن نؤمن وأن نموت وأن نسلك. الإيمان راية نرفعها على روابي قلوبنا. نؤمن بالربّ يسوع الذي جاء لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به بل يكون له نصيبٌ في الحياة الأبديّة. أمّا الموت هو مياهٌ نُلقَى فيها ليكون لنا في أنفسنا حُكم الموت، لتنتشلنا يدُ الله لتهبنا الحياة، وبحسّ الموت

المُحيي نتحرَّك، وبحسّ العرفان بالجميل تجاه مَنْ أحيانا نسلُك بين الأحياء. فوق المياه يَهُبُّ الروح ليَهِب المولودين من فوق ولفوق، سِرَّ النصرة؛ فالروح يتعاهد معهم على أن يكون مُرشِدهم في عالم الموتَى إلى كنعان الجديدة وأورشليم العليا، وكلّما تعثــّروا أضاء لهم مصباحًا على الطريق. هذا هو ميثاق الروح مع المولودين من فوق وليس سواهم. بدون الإيمان لن نقبل الموت وبدون الموت لا نستطيع أن نسلك كمسيحيين. وتبقَى الولادة من فوق هي رجاؤنا ما بعد موت مياه المعموديّة، وشوقنا بعد إماتة الأهواء في قلوبنا. فطالما هناك فوق، فموتنا هو عين الحياة.

يكتب إريك فروم أنّ "المُهمّة العظمَى في الحياة أن يَلِد الإنسان ذاته، ليصير ما ينبغي عليه أن يكون"، ويقولها كيركجارد بشكلٍ آخر، إذ يكتب: "إنـّني لم أخلق نفسي ولكني اخترت ذاتي". فالحياة هي صيرورة .. والصيرورة لبعضٍ قد تكون من الموت للحياة، ولآخرين من الحياة للموت. أن نُولَد يعني أن نصير، أن نُصبــِح، والصيرورة حركة ونمو واكتمال، أو حركة وانتقاص وانفصال؛ فلكلٍّ منّا صيرورته الخاصّة. فيهوذا التلميذ يصير يهوذا الخائن، وبطرس المُنكِر يصير بطرس الرسول، وشاول المُجدِّف يصير بولس الكارز، وأنسيمس العبد يصير أنسيمس الحرّ، وموسَى اللّص يصير موسى التائب، ومريم الغانية المصريّة تصير مريم السائحة، ونسطور البطريرك يصير نسطور الهرطوقي .. الإنسان هو صيرورة، وكلٌّ منّا يختار مَنْ يصيره، "وما صيرورتنا" بحسب كلمات القديس أغسطينوس، "إلاّ أن نصبح أبناء الله".

كتب القديس أغسطينوس: "إنْ أحببت الأرض صرت أرضًا". والأرض هي ما نطأه بأقدامنا، فإنْ صرنا أرضًا وطأنا أنفسنا بأنفسنا، سحقنا كياننا بأرجلنا .. إنْ صرنا أرضًا رضينا بموتنا .. بفنائنا .. بعدمنا، وما العدم الذي يلوح لنا سوى شعورنا بالتلاشي، والتلاشي هو عدم الوجود في أيِّ وجود!!

إنْ كان الوجود هو الله، الذي به نحيا ونتحرّك ونُوجد، يبقَى التلاشي هو الغياب من الله، من النور، من الحبّ، من الرجاء، من خلود أبديّة الأفراح .. إنـّه حركة غياب مستمرّة .. حركة انزواء وجفاف وتساقط يرافقها وعي يتألّم، وما أقصَى على الوعي من شعوره بالتلاشي .. بالفناء .. بالاندحار .. بالعدم، إنـّه أحد آلام الجحيم الأبدي، لمَنْ قبلوا أن يصيروا أرضًا بينما كانت دعوتهم أن يحلِّقوا فوق، في فضاء السماء .. حيث كائنات النور الرقيقة العذبة هم رفقاء الأبد ..

الميلاد من فوق هو زرعٌ إلهيٌّ أُلقي في رحم وعينا، فكان ميلادنا. هل الزرع الإلهي هو الكلمة؟ هذا ما يُؤكِّده القديس بولس. والكلمة إن وجدت لها مستقرًّا في الوعي والقلب والذهن، فطلق الروح يُؤكِّد ميلادنا في عالم الله.

الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع، كلمات قد يراها البعض تحمل حِسًّا بالتعالي، ولكنها خرجت من فمّ الذي أخلَى نفسه من كلّ أمجاد الألوهة. مَنْ هو فوق الجميع هو مَنْ يفوق الجميع في الحبّ. ومَنْ يأتي من فوق يُحدّثنا عمّا هو فوق، ولكن هل مَنْ يُصغي لكلماته؟؟!!

## عند البئر

في وهج شمس الظهيرة، وتحت لسعات أشعّتها اللاّفحة، جلس المُخلِّص. عند البئر كان الراعي ينتظر خرافًا ضالة، فالخراف دائمًا تبحث عن مياه لترتوي منها، فهي عطشَى على الدوام، والراعي هو مَنْ يتحيَّن عطش الخراف ليجتذبهم إلى مياه الحياة.

فجاءت امرأة من السامرة لتستقي ماء

يو ٤: ٧

الرجل والمرأة .. اليهودي والسامريّة .. العلن والخفية .. كلها أفكار لم تَرِد بذهن المُخلِّص، ولكنّها راودت مَنْ كانوا على مقربة منه، بل قد تراود مَنْ يطالعون حواره مع السامريّة. هناك مجتمع يرصد ويحكم حسب الظاهر، والكثيرون عبيد الخوف من أحكام المجتمع، يهادنوه لئلا يرميهم بسهامه، فيصرع سمعتهم، ويتركهم للوحدة والنزع الاجتماعي، وهو ما يسمّيه البعض؛ "الاغتيال المعنوي".

حاول قادة اليهود اغتيال المُخلِّص في قلوب أتباعه حينما اتّهموه بأنـّه سامري (انظر: يو ٨: ٤٨)!! هل كان هذا لأنـّه بشّر في السامرة؟ قد يكون.

هناك مَنْ قَبِل شوكة آلام شكوك الجموع طمعًا في غنَى الروح وخلاص النفوس. فالنفوس لن تخلُص إلاّ بالجهد والدماء. كان فيتاليوس الرّاهب الشيخ الذي جاوز الستين، أحد هؤلاء ..

فقد كان يسعَى لكيما يُخلّص الذين باعوا أجسادهم نهبًا للخطيئة مقابل المال، من ليلة في الخطيئة، لعلّها تصير بدءًا لحياة جديدة مع الله. كان يذهب للغانيات ويعطيهن أموالاً مقابل الحفاظ على ليلتهن

دونما خطيئة، وكان يُعطي كلّ واحدة منهن مثقالاً ويقول لها: خذي هذا المثقال، واحفظي نفسك نقيّة في هذه الليلة. بعدها يأخذ جانبًا ليقضي ليلته في الصلاة والتسبيح حتّى مشارف النهار.

وقد ناله جرّاء عَلاقته بتلك الغانيات مصاعبُ جمّةٌ. فقد كانت سيرته تلوكها الألسن، وكان يشمئز منه مَنْ رأى في نفسه تعفُّفًا لم يُختبر، تعفُّفًا بعيدًا عن نيران التجارب. بل لقد ضُرِبَ من أحد الشباب الغيور على الشرف والعفّة، قائلاً له: "إلى متى ستظل ممارسًا هذا الفعل القبيح، يا متاجرُ بالمسيح؟"

فللشرف ألف محامٍ، طالما كان شرف الآخرين!!

كم من غانيات قد رجعن إلى الربّ وعشن حياتهن الباقية بنقاوة وطُهر. ولكن أين العيون التي ترصد الخير، فالأعين لا تستقطبها إلا النقاط السوداء!!

بعد موته، وهو سيّئ السمعة، اجتمعت الفتيات اللائي كُنّ يتمرَّغن قبلاً في أوحال الظلمة، عند قلايته، والتففن حول رفاته حاملات معهن شموعًا وأطيابًا لتطييب جسده الطاهر، وهنّ باكيات. هل كان بكاؤهم على قسوة العالم على مَنْ لم يعرف سوى الرحمة والحبّ، وهو أحد سكّان العالم؟ أم أنّ بكاءَهم كان صرخات توجّع على فقدان صدرٍ حانٍ لا يدين ولكنّه يُحبّ، لا يتأفّف ولكنه يتألّم؟ لا أدري.

اعلَموا الجموع بسيرته الفاضلة، ذاك الذي لم تراوده أفكار الشهوة، بل ولم يسمح لناظَريْه بنظر ما كان يدفع فيه الرجال.

إنّ هناك دائمًا من يسير على خُطَى المُخلِّص، ولكنّه دائمًا مُهانٌ مجروحٌ موصومٌ من العالم، لأنـّه لا يعبأ بالعالم، فقط بالربّ يسوع ..

عند البئر، كان يسوع هو البادئ بالحوار، أو قُل هو الذي رَمَى الحجر ليُحرِّك المياه الراكدة. كلُّ مَنْ يرى ضعفه وإن كان خفيًّا عن أعين الجميع يبتعد لئلا يُفتضح. هناك دائمًا مخاوف تلاحق من تكتّموا على جراحهم؛ هل هي رائحة دماء قلوبهم التي تنزف، أرادوا أن يخفونها لئلا يُرى الجرح وتنكشف الجراح؟ ربما. كم من جراحٍ سهلة المداواة، ولكنها في أعين المرضَى أسوارٌ شاهقةٌ لا تُختَرق، ومياهٌ عميقةٌ لا تُعبَر. مَنْ لهؤلاء ببئرٍ ومُخلِّص وكلماتٍ كبلسمٍ يداوي الجراح؟ أين يرعَى هذا الطبيب، وأين يربُض عند الظهيرة؟ كانت تلك أشواق فتاة النشيد، وأشواق كلّ مَنْ يتخفّى خلف ابتسامته لئلا يُكتشف أمره.

هل يمكن أن يقف إنسانٌ أمام شمسٍ ولا تغمره؟ هل من مخبأ من لهبها ونهبها، فالشمس تنهب خصوصيّتنا وتجعلنا مرئيين وهذا ما يؤرق البعض؛ فهناك مَنْ يطمحون في ألاّ تراهم الأعين؛ فالأعين سهامٌ مارقةٌ تخترق قلوبًا تخفّت تحت أوراق التين ..

أمام ضياء الربّ لا مخبأ ..

فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر

يو ٤: ٦

كانت أسفار المُخلِّص متتالية، لم يهدأ ولم يهنأ بلحظاتٍ من الراحة، فراحته هي الشفاء والتحرير، وطعامه هو إتمام مشيئة الآب. هل تعب من أسفاره، أم تعب لكون المرضَى لا يستشعرون جراحهم؟ رأى الموت يُحلِّق، والدواء في يده، والبشر يلهون وكأنـّهم أحياءُ دهرًا!! تعب، لأنّ الإنسان قرَّر الموت طواعية، ولم يَقْبَل حبال النجاة. لقد أحبّوا عالمًا باهتًا لأن أعمالهم كانت شريرة. والشرُّ نارٌ تلتهم الإرادة، وما من شفاء دونما إرادة.

جرعة الماء لم تكن مطلب الربّ، ولكنها كانت بادئة حوار، فالكلام أوّل مراحل الشفاء، هذا ما يؤكِّده أخصائيو الطبّ النفسي، وهذا ما فعله المُخلِّص.

"تكلّم لأراك"، قالها سقراط قديمًا، فالكلمة جسدٌ له تعبيراته ودلالاته والأذن عينٌ لها منطقها وتحليلها. حينما يلفظ المرء ما بداخله فإنّ في هذا إقرارٌ بالحاجة، وما من حاجةٍ لا تجتذب يد الربّ يسوع.

أعطيني لأشرب

يو ٤: ٧

يبادرنا الله دائمًا بالحوار، وما بادرته سوى النعمة التي تلمس قلوبنا لعلّنا نُخرِج ما بداخلنا، ودواخلنا عوالمٍ متشابكة متقاطعة متناثرة .. "عالم الإنسان في قلبه"، هذا ما كتبه القديس مكاريوس الكبير، والكلمة هي لفظ ما في القلب من أطياب أو أقذار؛ « فمن فضلة القلب يتكلَّم الفم ».

الكلمة ليست تلك الحروف المُتراصّة والمنطوقة ولكنـّها ذاك الحراك الداخلي الذي تُولِّده من معانٍ، تلمس القلب والذهن، لتصير فيه، شخوصًا وحوادثَ وقناعاتٍ وأفعالاً ومواقفَ واشتياقاتٍ وأهواءً .. الكلمة عالمٌ يُخلَّق في قلوبنا .. وعالمٌ تُصدِّره ألسنتنا ..

بعدما أنهَى مايكل أنجلو نحت تمثاله البديع لموسَى النبي قال للتمثال: "ماذا ينقصك حتّى تنطق؟" ولم ينطق التمثال، فما كان منه إلاّ أن كرّر كلماته وهو يهوي على ركبة التمثال منتظرًا تحقُّق المعجزة، وقال له: "انطق أيها الحجر!!" ولكن نحت العالم لا يخلق حياة، وحدها كلمات المُخلِّص تهب الحجارة الصمّاء روحًا، كما وَهَبَت الطين نفسًا حيّة، بل وقد تقيم منه أولادًا لإبراهيم ..

"كُلُّ كلمة تُقال يمكنها أن تستنهض إراداتنا الذاتيّة"، هذا رأي الشاعر الألماني جُيته، إلاّ أنّ للكلمة وجهيْن؛ لها فمٌ وأذنٌ. إن كانت الكلمة نابعة من فمٍ لم يعرف مداهنات العالم، وكانت الأذن جوعَى للكلمات، صارت الكلمات "أجنحة للعقل" كما قال الكاتب المسرحي اليوناني القديم أرستوفان. من تلك النوعيّة كانت كلمات الربّ يسوع.

ولكن، إنْ كانت الكلمات بضاعة الخطابة الجوفاء، وكانت الآذان متخمة، صارت الكلمات بخارًا يظهر قليلاً ثمّ يضمحِل.

إنّ مسعَى المُخلِّص هو مرافقتنا على دروب قلوبنا، هناك يقف إنسان القلب ينتظر الربّ ليلمس العين المظلمة لتُبصِر، والأرجل المتحجرة لتتحرَّك، واليد المنغلقة لتنبسط، والفم الصامت ليتكلّم. إنّ الربَّ يريد أن يجوب قلوبنا يصنع خيرًا، ولكن مفتاح القلب في يدنا، فهل نفتح له أم نتركه لندَى اللّيل وشمس الظهيرة؟؟ ومفتاح القلب هو كلمة وحوار مع المخلِّص.

"لقد كان عطش يسوع إلى إيمان المرأة نفسها"، هذا ما كتبه القديس أغسطينوس.

أجاب يسوع و قال لها:
لو كنت تعلمين عطيّة الله
ومَنْ هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب
لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيًّا

يو ٤: ١٠

جاء المُخلِّص للسامريّة بعطيّةٍ، لم تفهمها، كما لا نفهم عطايا الله لنا في الكثير من الأحيان. لا نفهم لقاءه المفاجِئ على آبارنا .. لا نفهم طلبته .. ولا نفهم عطاياه، عقولنا منشغلة بعزف ألحاننا الذاتيّة، لا نعيره انتباهًا، ولا نهبه آذانًا لعلّ موسيقاه تأسُرنا وتستقطبنا من رياح التجارب الأربع وكأنـّها كونشرتو فيفالدي البديع عن الفصول الأربعة.

امتدّت يدُ الربّ بالعرض الذي جاء من أجله؛ إنه الماء الحيّ. وأكثر مَنْ يتلهّف على الماء هم سُكّان القفار والصحاري. هل أدركت المرأة السامريّة أنـّها تجوب صحراوات الخطيئة، هل كان تبديلها للرجال هو بحثٌ عن استقرارٍ يوفر لها ماء وكلأ. الخطيئة قد ينفث في نيرانها خوفٌ من الغد .. قد يؤجّجها شعورٌ بعدم الأمان، فهل القلق هو دافع الخطيئة أم نِتاجها؟ كلاهما أعتقد.

لا دلو لك والبئر عميقة، فمن أين لك الماء الحيّ؟

يو ٤: ١١

حينما نُفكِّر في عطايا الله نحاول أن نرسم سيناريو في خيالنا للعطيّة الإلهيّة ومسراها. دائمًا ما نفكِّر في الدلو والبئر العميق، وفي المقابل نُفكِّر في الماء .. كيف تستقيم المعادلة؟ لنا أذهان رياضيّة لا تنتظر نتائج من معطيات مغايرة!! كما أنّ آمالنا هي أسيرة التاريخ، فيعقوب هو النموذج وهو الأصل بل هو السقف الذي لا يتخطّاه فكرٌ إنْ أراد الارتواء من البئر، وهل العابر على بئر يعقوب أعظم من يعقوب؟؟ تساءلت السامريّة. نحن أسرى التاريخ الذي يجعلنا نرفُض أن نحلم مع النعمة، إنـّه يُجهِض فينا الخيال لما يمكن أن نناله في معيّة الربّ يسوع.

ولكن مع الربّ يسوع فإنّ النتائج أبعد من آفاق خيالنا، وسماوات طموحنا، ونجوم منطقنا. كلّ الخبرات معه متجدِّدة تجدُّد الحياة، وكأنـّها بصمات يستحيل تكرارها، فقط إن آمنّا أنـّه يستطيع أن يفعل أكثر ممّا نطلب أو نفتكر، فقط إن تحرّرنا من عبودية التاريخ وقوالبه الجامدة.

إنّ وعد المسيح بالماء دائمًا ما يُداعِب ظمأنا الجسدي؛ كلّ طموحنا نختزله في الحاجة التي يلدها العالم من أرحام عقولنا. نُفكِّر في المستقبل الباهر والزواج السعيد والأمان المادّي والوجاهة الاجتماعيّة والعمل المُزدهِر والصحّة الهانئة .. تلك هي المياه التي تعبُر بأذهاننا عند حديث الربّ، ولكن، هل تلك هي عطيّته؟؟!!

القلب .. القلب .. القلب .. هو الأرض التي يروم المُخلِّص إمدادها بمياه الحياة؛ فما الأمان دونما حياة، وما العمل دونما حياة، وما الصحّة دونما حياة .. كلّها طموحات توهّمناها أدوات سعادتنا، وإن نلناها بقيت قلوبنا على شحوبها وكينونتنا على أنينها، لم تستقر ولم تهدأ وتهنأ بعد. فالقلوب "لن تجد راحتها إلاّ فيك"، كانت تلك هي صلاة أغسطينوس بل وخبرته مع الحياة. فالسلحفاة آمنة في صخرتها ولكنّها ليست حيّة القلب والوعي، والنمل دؤوبٌ في عمله ولكنه ليس حيّ القلب والوعي، والأسود

صحيحة الأجساد قويّة ولكنّها ليست حيّة القلب والوعي .. فالقلم الذي يكتب منطق الأجساد لا يستطيع أن يُعبِّر عن منطق الروح؛ فالجسد والروح كلاهما يقاوم الآخر، ليربح الآخر إلى عالمه ..

مياهُ العالم لا تروي، إنّها تُلهِب العطش .. هي أشبه بعقاقير إنْ لم نتناولها تألّم جسدنا وتمرّد وهاج. كانت عقوبة الآلهة لتنتالوس في الأسطورة الإغريقيّة القديمة هي أن يقف في بحيرة من الماء العذب تحت أشعّة الشمس، وكلّما اشتد عطشه ارتفع الماء حتّى يبلغ شفتيه، فإذا انحنَى عليه يشرب، هبط الماء حتّى ساقيه، ثمّ يرتفع حتّى شفتيه .. وهكذا إلى الأبد .. أليس هذا هو حال العالم معنا، الذي كلّما توهّمنا أنّنا صببناه في كأسنا لنرتشف منه هانئين، فرّت المياه ولم تترك في كؤوسنا سوى الحسرة والحيرة وخيبة الأمل!!

مياهُ العالم ساحرة من بعيد ولكنّها مرّة في جوف البشر، الكلُّ يتجرَّع مرارتها في صمتٍ، وكأنـّها تُهدِّدهم إن أنـّوا على الملأ، وإن افتضحوا سِرّها على مسمع من الجموع، لحرمتهم من وهم الغد السعيد!!

لم يكن الربّ يسوع قاضيًّا يُلقي بالحُكم في أروقة القضاء، ويُسلِّم المُدانين إلى أعوامهم اللاّحقة التي بها طعم الألم والحسرة، أحكامٌ تُعلِن أنـّهم منبوذون من الأبرار، أو هكذا يبدون أبرارًا للجموع. كان المُخلِّص طبيبًا يرى البشر مرضَى، ويرى الخطيئة مرضًا. كان يسعَى ليُعرِّف المرضَى بأمراضهم، وإن اعترفوا، ألقَى عليهم بكلمات الشفاء. وما شفاء المُخلِّص إلاّ تحرير القلوب. إنّ المُخلِّص يرى نقاط الضوء في ثياب البشر وإن طالتها ولوّثتها الأوحال؛ هكذا رأى السامريّة، بل هكذا يرانا، يستحسن صِدقنا مهما كان قبحه، فالصدق أيضًا بدء الشفاء.

امرأة تحيا مع رجل دون زواج؛ إنـّها جريمة مكتملة الأركان تستحق عليها رجم المجتمع ودينونة الله، فهل تمتد يدُ المُخلِّص لتُزهِق روحًا مُدانة من نفسها قبل أن تكون مُدانه في أعين الجميع؟؟

هذا قلت بالصدق

يو ٤: ١٨

لم يَرَ المسيح الجُرم، بل رأى الصدق، هذا هو المُخلِّص، وهذا ما يجب أن يكونه كلّ مَنْ دُعي على اسمه. لم يكن إنفاذ القانون مطمحه، بل إنقاذ الإنسان. إنـّه لم يأتِ ليدين العالم بل ليخلُص به العالم. ولكن، لماذا نُغيِّب حياة الربّ ومعاملاته من عقولنا ونحن نرتدي عباءة القضاء للحكم على الآخرين؟ لماذا تستهوينا ثياب الكتبة والفريسيين ولا تستهوينا أسمال الربّ يسوع؟؟ لماذا نتفاخر بسياط الدينونة والتطهير، ولا يستوقفنا بلسم الحبِّ والرحمة والغفران وستر الآخرين؟؟ لا أدري.

لا تقْضُوا على أحدٍ فلا يُقْضَى عليكم

لو ٦: ٣٧

إنّ الفارق بين الفنّان والرجل العادي هو أن الأوَّل يرى جمالاً في كلّ شيء؛ تحكمه العين الجماليّة، فتجده يَنْظُم قصيدة أو يرسم لوحة أو يُلحِّن مقطوعة موسيقيّة مُستلهِمًا ممّا يراه الجميع قبحًا!! فالفنان هو الواقف يرصد جمالات الوجود؛ هكذا الربّ، هو يقف ليرصد كلّ جمال بنا، يتحوَّل عن أكوام القبح التي تثير اشمئزاز الجموع .. هو يعزف لحن الرجاء ليحيل القبح إلى نغمات طُهر وكلمات حبّ يملأ الوجود بعبقه ورائحته.

آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجَد فيه

يو ٤: ٢٠

كان ما يشغل السامريّة هو موضع السجود لله؛ هل في أورشليم أو في السامرة، تحوّلت عن ذاتها وفحصت في قضايا عامّه، لعلّها كانت تبحث عن مخرجٍ من ألم الضمير ونخس الخطيئة. كثيرًا ما يتحوَّل البشر عن حياتهم لينخرِطوا في حوارات جدليّة، وكأنـهم يُثبّتون حضورهم في دائرة الأبرار بالعقل والمنطق والحُجّة، أو بالتمرُّد والجدل والصراع في أحيانٍ أخرى. التوبة قاسيّةٌ أمّا الجدل اللاّهوتي فميسور. التوبة تتطلّب أن يتواجه الإنسان مع ذاته، أمّا الجدل فهو حراك العقل لنمو الذات. التوبة تميت الذات لتخفيها عن أضواء المجتمع وحديثه، بينما الجدل يستقطب الضوء بل وينتزعه ومعه إعجاب البسطاء وآهات الذين يتوهّمون في الجدل علم الروح!!

لم تكن السامريّة معنيّة بتوبتها في بادئ الأمر بل بالجدل اليهودي / السامري. هل كان ذلك الأمر عائقًا لتوبتها؟؟ لا أظن. ولكنّه كان بمثابة هويّة لها ولشعبها السامري. وما أكثر الخلط بين الهويّة والأبديّة ..

لقد كتب رينهارد بومر في مقاله "السامريين" في "المجلَّة الكتابيّة"، إنّ إسحق ماجن المُشرِف على التنقيبات الأثريّة في منطقة السامرة، قد أعلن أنّ الموضع الحالي لكنيسة الثيوطوكوس والتي بناها الإمبراطور زينون في أواخر القرن الخامس الميلادي، وأعاد بناءها الإمبراطور يوستنيان الأوَّل في منتصف القرن السادس الميلادي، كان مقرّ الهيكل السامري القديم.

وإلى السامرة ذهب فيلبس، بعد موت / قيامة المسيح، مُتحرِّرًا من قيود العرق .. كرز هناك .. وقبلوا كلمة الله .. عمّد جمعًا غفيرًا في المدينة. وإلى هناك ارتحل بطرس ويوحنّا اليهوديان، وضعا عليهم

الأيدي، فقبلوا الروح القدس، وصاروا يتبعون الطريق. أيدي اليهود لامست رؤوس السامريين ولم تتنجّس!!

مِنْ كلمات الربّ يسوع نبتت كرازة، أثمرت خلايا حيّة في جسد الكنيسة. في المسيح، سقطت الحواجز بين السامرة وأورشليم .. الكلّ أصبح واحدًا في المسيح .. هذا ما أكّده القديس بولس في رسالته إلى الغلاطيين في إصحاحه الثالث: « لأنـّكم جميعًا أبناءُ الله بالإيمان بالمسيح يسوعَ. لأنّ كلّكم الذِين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح: ليس يهوديٌّ ولا يونانيٌّ. ليس عبدٌ ولا حرٌّ. ليس ذكرٌ وأنثى، لأنـّكم جميعًا واحدٌ في المسيح يسوعَ ».

عبادة الهيكل التي شغلت السامريّة قد تلاشت أمام العبادة التي ألَّف كلماتها، الربّ يسوع الكلمة المُتجسِّد، ليُمهِّد الطريق للعبادة بالروح والحقّ.

ولكن تأتي ساعة وهي الآن

حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له

يو ٤: ٢٣

ذاك هو دستور العبادة المسيحيّة؛ فالعبادة تقوم على قطبي الروح والحق، أو قل هما قدماها. كلُّ مَنْ ولد من الروح وخضع للحقّ كان عابدًا في محراب النور، يسير بخطَى ثابتة نحو ملكوت الله.

ومَنْ يتعبّد بالروح والحقّ سيتكشّف له لاهوت الربّ يسوع المختفي والمحتجب عن الأبصار الغارقة في العالم. وقتها سيصرخ ويقول:

هذا هو بالحقيقة المسيح مُخلِّص العالم

يو ٤: ٤٢

ومَنْ يتعرّف على مُخلِّص العالم، سيراه ناهضًا .. قائمًا، ومن قيامته يفيض وهج النور على الموتى لينهضوا ..

## هو قائم

في اليهوديّة كان هناك توجّهان رئيسيّان فيما يتعلّق بقيامة الأجساد؛ الاتّجاه الأوَّل ويتزعّمه الصدوقيون والأسينيون وهم الذين يرفضون القيامة، يرونها تغييبًا للعقل ومنطقه. أمّا الاتّجاه الثاني

فيقوده الفريسيون والذين شكّلوا فيما بعد فكر الرابيين، وهم يؤمنون بقيامة الأجساد .. « لأنّ الصدوقيين يقولون إن ليس قيامةٌ ولا ملاك ولا روح وأمّا الفرّيسيون فيُقرّون بكلّ ذلك » (أع ٢٣: ٨)

لقد اعتقد الرابيون، أنـّه لكي يكون لليهودي نصيب في القيامة في مُلك المسيّا على الأرض، يجب أن يُدفَن في الأراضي المُقدّسة، حتّى إنّ البعض علّم بأن أجساد الأبرار سوف تتحرَّك تحت الأرض عائدة إلى إسرائيل لتقوم هناك!!

والمكان الأمثل لدفن موتَى اليهود هو وادي قدرون، والذي يعتقدون أنـّه هو وادي يهوشافاط، الواقع عند البوابة الشرقيّة لأورشليم. من هناك ستنطلق أبواق القيامة العامّة، هكذا يعتقدون حتّى الآن.

عند الفريسيين، كما يكتب يوسيفوس، المؤرِّخ اليهودي الأشهر في كتابه "آثار اليهود القديمة"؛ "النفوس بها حيويّة ونشاط لا يطاله الموت .. وسوف تمتلك (النفوس) السلطان لتستعيد الحياة من جديد". ولكن قيامة النفوس ترتبط بالتناسخ كما يكتب يوسيفوس أيضًا في كتابه "الحرب اليهوديّة" إذ يقول: "إنّ كلّ النفوس غير قابلة للفساد، إلاّ أن نفوس الأبرار تدخل في أجسادٍ أُخرى (التناسخ)، بينما نفوس الأشرار تتعرّض للعقاب". وفي الصلاة التي يتلوها اليهودي عقب الاستيقاظ من النوم، يقول:

ربّي،
إنّ النفس التي منحتني إياها طاهرة،
أنت خلقتها .. أنت شكّلتها،
أنت الذي نفخت فـيّ نسمة الحياة ..
وسوف تأخذها مني أخيرًا وتُعيدها إليّ في الدهر الآتي ..
أنت مُسبّح أيّها الربُّ،
يا مَنْ تُعيد النفوس للأجساد المائتة.

يقول أحد العلماء وهو دكتور فرنر فون براون Wernher von Braun: "إنّ العلم وجد أنـّه لا يوجد ما يُسمَّى بالانقراض بمعنَى التلاشي، فلا شيء يختفي دونما أثر. فالطبيعة لا تعرف سوى التحوُّل ... ومن غير المنطقي ألاّ ينطبق هذا القانون على النفوس أيضًا".

هذا هو سِرُّ القديس بولس الذي أفضَى به إلى الكورنثيين في إصحاحه الخامس عشر وبالتحديد في العدد الحادي والخمسين؛ « هوذا سِرٌّ أقوله لكم: لا نرقد كلّنا ولكننا كلّنا نتغيّر ». وهو السرّ الذي تحفظه الكنيسة في قلبها .. تترقّبه مع بزوغ كلّ فجرٍ جديد ..

ولكن، إلى ماذا سنتحوّل؟ مَنْ سنكون حينها؟

ولكي نفهم التحوُّل، في صورته النسبيّة، نستعير الكلمات التالية من فرنسوا فاريون: "ليست الفراشة دودة كبيرة، لأنّ النمو لا يكون أبدًا مُجرّد كِبَر. فلو كان للدودة وعي وكنت أستطيع أن أخاطبها .. لسألتها بماذا تحلُم؟ لا شكّ أنـّها ستجيبني، بوجهٍ أسطوري، إنـّها تحب أن تكون أكبر دود الغابة، ومَلِكة الدود، تلك التي تستطيع أن تملُك، بفضل حجمها ووزنها، على سائر دود الغابة. يُسمَّى ذلك إرادة قوّة، وما هو إلاّ المزيد على الوضع الحاضر، دونما أي تحوُّل. لا تعلم الدودة بأن عليها، لكي تصبح ما يجب أن تكون، أن تتخلَّى عن جسدها الدودي وأن تُعطَى جسمًا جديدًا، إذ لا وجود لها إلاّ لتُصبح فراشة: هذه هي دعوتها. ولن تكون ما يجب أن تكون إلاّ يوم أن تصبح فراشة".

إنّ دعوتنا هي سُكنَى الخلود في ملكوت ابن الله .. دعوتنا أن نتحوَّل من كائنات تتنازع على البقاء إلى كيانات تبغي العبور حيث الديمومة الأبديّة. دعوتنا أن نصير شركاء المجد الإلهي؛ هناك سيلبس الفاسد عدم فساد، والمائت سيرتدي عباءة عدم الموت، والناقص سيتزيّن بالاكتمال .. والزمني سينعَم بالخلود .. وسينفض الترابي غبار خلقته الأولى .. سنتغيّر إلى صورة المسيح عينها، صورة الابن البِكر، القائم من عالمنا لمجد أبيه. تلك وعودٌ كتابية يستند عليها رجاؤنا في الدهر الآتي والحياة الأُخرى.

أنا هو القيامة والحياة

يو ١١: ٢٥

إنّ الربّ يسوع ليس قائمًا فحسب، ولكنه النبع الذي نرتشف منه لنقوم، هو القيامة في أصلها ونقائها، ومَنْ يُطعَّم في الأصل يقوم معه وفيه.

لقد قرَّر أحد الجرّاحين الفرنسيين ويُدعى مارك أوريزون أن يترك الطبّ ويقبل دعوة الكهنوت لا لشيء إلاّ لأنـّه كان يرى كلّ يوم الناس يموتون ويتوقّفون عن الحياة، فكان قراره أن تكون قدّاساته في "حضن شمول الموت"، لكيما تكون القيامة حاضرة، في قلب عالم يزول فيه كلّ شيء ..

إنّ مَنْ يدخل في المسيح ويتأصّل فيه، تلمسه قوى القيامة، فلا يرى الموت الثاني. يصبح الموت له سحابة صيف عابرة .. غيمة من غيمات الشتاء لا تحجب شمس القيامة الساطعة.

لقد كتب أوريجانوس في شرحه للرسالة إلى أهل رومية، قائلاً:

إنّ النباتات تنتظر قيامة الربيع بعد موت الشتاء.
لذا، فإن كنّا مغروسين في موت المسيح
في شتاء هذا العالم وتلك الحياة الحاضرة،
سنُوجَد في الربيع الآتي
حاملين ثمار البر من هذا الأصل

إنّ القيامة رجاء الطبيعة، لتجتاز الموت وأشباهه وظلاله. الموت والشتاء هما قانون الطبيعة المنقوش على أحجار مصير الخليقة منذ السقوط. كلاهما انكماش .. تراجُع .. غياب .. نضوب .. وما من غياب لا يثير فينا الألم والضيق.

المسيح قيامة، وكلّ مَنْ أراد القيام من سقطته وانطراحه عليه أن يُلاقيه بالإيمان اليومي المُتجدِّد، وقتها سيكون له شركة في ثمر القيامة الربيعي في الدهر الآتي.

كتب الشاعر النمساوي الشهير راينر ماريا ريلكه، عن قيامة الربّ وما تُمثّله لمريم المجدليّة تلك التي أحبّت المُخلِّص حبًّا حتّى الصليب. وهناك رأت سيّد الكون مُثبَّتًا بلا حراك، ولكن موته لم يمنع تعلُّقها بالمُخلَّص .. ذاك الذي حرّرها سابقًا. ذهبت لقبره تندب على قسوةٍ نشبت مخالبها في جسده الطّاهر، فرأته قائمًا ليعبر بها وبكلّ مَنْ قَبِله قائمًا في قلبه، إلى ملكوت الآب ..

حتّى النهاية لم يفكِّر بأن يعيقها أو يمنعها
من أن تنال من حبّها له مجدًا؛
أسفل الصليب سقطت، متلفّعة بآلامها وبأروعِ حُلي المحبّة
فيما بعد، عندما جاءت لتعطير قبره، سابحة الوجه بالدمع،
نهض من أجلها من موته،
ليقول لها، بصحوٍ أكبر: لا تمسكيني

المسيح على الدوام ناهض وقائم من أجل مَنْ يشتعلون حبًّا من نحوه، لذا فتوبتنا لن تكتمل إلاّ إذا كانت توبة قياميّة؛ تنهض بالمسيح وفي المسيح وللمسيح. وصلاتنا لن تتحرّر إلاّ إذا كانت صلاة قياميّة منجذبة إلى وميض القيامة المنبعث من حضور الله المُتسربل بالضياء كثوبٍ. كذلك صبرنا على مضايقات الجسد والعالم والشيطان لن يتجدّد إلاّ إذا كان متوكّئ على رجاء القيامة، أي أنّ مسيحيتنا كلّها مرهونة بإيمان القيامة الذي يلمس كلّ موت فينا ليُنهِضه من جديد. فلو لم يكن المسيح قام،

فباطلة هي بُشرَى الخلاص، وباطل هو الإيمان بالمُخلِّص، نحن بعد في خطايانا منطرحين!!! ونبقَى « أشقَى جميع الناس » (١كو ١٥: ١٩) كما يكتب القديس بولس بمرارة الألم.

القيامة هي لُغة المسيحيّة الحقيقيّة مهما كانت مسار سخرية العالم .. هي شهادة الكنيسة .. نبع أفراحها .. نغم تهليلها .. أنشودة تسبيحها .. لحن رجائها.

ولكن، هل لا زلنا نشهد بقيامة الربّ يسوع، بقوةٍ، كما الرسل؟؟ (راجع: أع ٤: ٣٣) هل لا زلنا نُضجِر، كما الرسل، قيادات العالم بندائنا في الربّ يسوع بالقيامة من الأموات؟؟ (راجع: أع ٤: ٢).

ليتنا نكون ..